بين الحركة والسكون في فكر العلامة إقبال

د . إبراهيم محمد إبراهيم ([1])

تمهيد :

نشأ إقبال في مجتمع - مثله كمثل باقي مجتمعات المسلمين في ذلك الوقت- ذاق مرارة الاحتلال ، وتجرع كأس الذل والاستعباد، فأصاب هذا المجتمع قدر من الجهل الشديد، يتوازى معه في خط واحد فقر مدقع، ولا شك أن الضلع الثالث للمثلث وهو المرض تكامل معهما . وفي المقابل كان الإنجليز – المحتل – على قدر كبير من التقدم الصناعي على مختلف مستوياته، وكانوا بالطبع هم المسيطرين على خيرات شبه القارة الهندو باكستانية وثرواتها.ولمصلحة سياسية معينة (١) عمل الإنجليز على تقريب الهندوس وغيرهم من الطوائف الدينية الأخرى والإنعام عليهم بالوظائف وتيسير سبل الحياة أمامهم، وفي المقابل عملوا على استبعاد المسلمين وتجهيلهم وتنحيتهم عن الوظائف وعدم تقديم يد العون لهم بحال من الأحوال، بل وأكثر من ذلك مصادرة ما كانوا يمتلكون، ثم العمل على محو كل أثر للحكم الإسلامي في شبه القارة الهندية والذي استمر منذ أوائل القرن الثامن الميلادي (٧١٢م) وحتى بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي (١٨٥٧م)، فتمّ إلغاء اللغة الفارسية من التعامل الرسمي في البلاد عام ١٩٣٥م، (٢)، وإحلال الإنجليزية محلها، ثم الإعلان عن إلغاء الحكم الإسلامي ونظام السلطان بعد السلطان بهادر شاه ظفر، ثم بعد ذلك إثارة الخلافات والصراعات المستمرة والشديدة بين المسلمين وغيرهم من طوائف شبه القارة خصوصاً فيما يتعلق باللغة الأردية (٣)، إضافة إلى القضايا التي تمس النواحي الدينية مثل ذبح البقر وأكل اللحوم وما إلى ذلك مما أضاف عمقاً واتساعاً للهوة بين المسلمين والهندوس على وجه الخصوص، وأدّى في غالب الأحيان إلى صراعات مسلحة ودامية راح ضحيتها الأبرياء من الجانبين .

---

[1] – الرئيس السابق لقسم اللغة الأردية بكلية الدراسات الإنسانية جامعة الأزهر فرع البنات بالقاهرة مصر ، والأستاذ الزائر حالياً بقسم دائرة المعارف الإسلامية الأردية بجامعة البنجاب بلاهور باكستان .

وبالتالي كانت هذه الظروف التي عاشها المسلمون في شبه القارة الهندية هي الدافع الأول، والمحرك الرئيس لعمليات الإصلاح التي قادها العديد من زعماء المسلمين هناك نذكر منهم شاه وليّ الله الدهلوي (٤)، والسير سيد أحمد خان (٥) رائد النهضة العلمية لمسلمي شبه القارة، والعلامة محمد إقبال، وحتى زعيم باكستان ومؤسسها محمد علي جناح (٦) .

نشأ إقبال في بيت متدين بطبعه، لكنه لم يكن ليدرك وهو في سنه الصغيرة ما كان يحدث لمجتمعه، ولذا فقد عاش الفترة الأولى من عمره وحتى سفره إلى إنجلترا عام ١٩٠٥م شاباً متديناً يتميز بالذكاء، ولديه موهبة شعرية قوية، لكنه لم يكن لديه تصور واضح لإصلاح المجتمع والعمل على رقيه طبقاً لنظام معين وفلسفة بذاتها كما حدث فيما بعد . صحيح أنه درس الفلسفة في هذه المرحلة العمرية، وكتب أشعاراً كثيرة أيضاً (٧) حتى ذلك الوقت، لكن دراسته لم تكن سوى دراسة نظرية لم تصطدم بالواقع أو تطبق عليه، كما أن أشعاره هذه كانت وطنية (٨) تدور حول الهند كوطن مثله في ذلك كمثل غيره من الشباب المحبين لبلدهم ومسقط رأسهم، ولذا نراه يقول في قصيدته **همالة** : الهيمالايا :

- همالة ، يا قلعة الهند الشماء، تنحني لتقبّل جبينك السماء .
- لا تبدو عليك علامات المشيب، فأنت رغم مرور الزمن شباب .
- كان التجلي للكليم على الطور مرة واحدة، بينما أنت التجلي الدائم للعيون البصيرة (٩) .

وكتب إقبال قصائد وطنية كثيرة تعبر عن حبه لوطنه – الهند قبل التقسيم – وإشفاقه عليه من غفلة أبنائه . يقول في قصيدة له بعنوان **تصوير درد** : صورة الألم :

- إن أحوالك يا أرض الهند تبكيني، فقصتك صارت عبرة بين القصص .
- فكّر في وطنك أيها الأحمق، فالمصيبة قادمة، والاستعدادات للقضاء عليك تتمّ في السماء .
- يا أهل الهند، لئن لم تنتبهوا فستمحون من الوجود، ولن يبق لكم ذكر بين من يذكرون (١٠) .

بل إن إقبال كتب قصيدة بعنوان ترانه هندي : النشيد الهندي نالت من الشهرة والقبول ما جعل أطفال الهند يرددونها على اختلاف أديانهم وديانتهم :

- الهند بلدنا أفضل من العالم كله . نحن بلابلها، وهي روضتنا .
- قلوبنا تعيش دائماً في الوطن حتى وإن كنا في غربة، ولذا فنحن نكون حيث تكون قلوبنا .
- وجبال الهيمالايا الشامخة التي تطاول السماء، تقوم بحراستنا، ونحن حرّاس لها .
- ونجري في أحضانها آلاف الجداول تجعل من روضتنا مثار غيرة الجنة .
- هل تذكر يا نهر الكنكا ذلك اليوم الذي حطّت فيه قافلتنا رحالها على شواطئك ؟!.
- إن الدين لا يعلّم الناس معاداة بعضهم البعض، كلنا هنود، والهند وطننا .
- زالت مصر واليونان (١١) وروما من الوجود، ولا نزال نحن وآثارنا باقين حتى الآن
- ورغم أن الزمن يعادينا منذ قرون، إلاّ أن وجودنا قائم لا ينتهي .
- يا إقبال، لا يوجد في هذه الدنيا من يفهم مكنون صدري، فكيف يعرف الآخرون بآلامي الداخلية (١٢) .

أما أكثر قصيدة ظهرت فيها وطنية إقبال ومحبته لبلده فهي التي كتبها بعنوان **هندوستاني بجون كا قومى كيت** : النشيد الوطني لأطفال الهند :

- الأرض التي أعلن فيها جشتي (١٣) رسالة الحق، الروضة التي غنّى فيها نانك (١٤) أغنية التوحيد .
- الأرض التي اتخذها التاتار (١٥) وطناً، وشدّت إليها الحجازيين (١٦) من صحراء العرب .
- هذا هو وطني، هذا هو وطني .
- البلد التي أذهلت اليونانيين (١٧) وعلمت الدنيا كل الفنون .
- البلد التي أودع الله في ترابها تأثير الذهب، وملأت جيوب الأتراك (١٨) باللآلئ .
- هذا هو وطني، هذا هو وطني .
- الأرض التي هاجر إليها عظماء الفرس (١٩) فمنحتهم شهرة وبريقاً كنجوم السماء .
- الأرض التي أسمعت العالم نشيد التوحيد، والتي هبّ منها نسيم عليل تجاه سيد العرب (٢٠) صلى الله عليه وسلم .

- هذا هو وطني، هذا هو وطني .
- الأرض التي أهلها في مقام الكليم، وجبالها في مقام طور سيناء . الأرض التي رست عليها سفينة نوح النبيّ (٢١) .
- الأرض التي – لرفعتها – تعدّ بمثابة الدّرج إلى الأفلاك (٢٢) . الأرض التي فيها الحياة كأنها الجنة .
- هذا هو وطني، هذا هو وطني (٢٣) .

ورغم أن بعض التلميحات التي وردت بالمنظومة ليست صحيحة تاريخياً، إلا أنها مشهورة في بلاد شبه القارة، ويعرفها الأطفال، ويتوارثونها من الآباء، وقد كتبها إقبال للأطفال، ولذا يمكن حملها على هذا الجانب .

ومن الجدير بالذكر أن الوطنية بالمفهوم السياسي الذي يتقيد بحدود الأرض والجنس واللغة رفضه إقبال فيما بعد حينما تبينت له مساوئه (٢٤) أثناء قيامه في أوروبا، فكتب نظماً بعنوان وطنيت : الوطنية يظهر فيها هذه المساوئ :

- في العصر الحاضر الخمر مختلف، وجمشيد مختلف، وقد اخترع الساقي أساليب جديدة للظلم والإكرام .
- وبنى المسلمون لأنفسهم كعبة جديدة، ونحت آذر الحضارة أصناماً جديدة .
- وأخطر هذه الأصنام الجديدة هو الوطن، إذ أن لباسه للدين بمثابة الكفن .
- العداوة بين أمم العالم بسببه، والتجارة بسببه تصير احتلالاً .
- يتفرّق خلق الله في شعوب بسببه، ويهتزّ أساس القومية الإسلامية بسببه (٢٥) .

ومن هنا لم يكن سفر العلامة إقبال إلى إنجلترا عام ١٩٠٥م بدافع من حرصه على تطوير مجتمعه ونهضته بقدر ما كان بدافع من حبه لدراسته التي تخصص فيها وهي الفلسفة، وحرصه على تكملة تعليمه إلى مراحل أعلى، وإن كانت عاطفة تدينه وحبه لوطنه ظاهرة جلية في أشعاره الأردية التي كتبها قبل سفره .

لقد كانت رحلة إقبال إلى أوروبا عام ١٩٠٥م هي تجربته الأولى مع السفر خارج بلاده، ولم تتح له قبل ذلك الوقت رؤية مجتمع آخر أكثر أو أقل تقدّماً، وإنما كان كل ما رآه

هو نماذج من مجتمع متقدم، أي الإنجليز، يعيشون في بلاده ويحكمونها، فلم يكن هذا التناقض في المستوى المعيشيّ والفكريّ وغيره بين هؤلاء النماذج، أي الحكام الإنجليز، وأهل شبه القارة المحكومين ليثير خيال إقبال ويجبره على التفكير في هذا الفارق الضخم بين الحكام الإنجليز والمحكومين الهنود، فهو على أية حال فارق لا نعدمه أبداً حتى ولو كان الحكام من أهل البلاد وليس من خارجها، وبالتالي لم يكن هذا الأمر يمثل ملحوظة خاصة تنطبع في عقل إقبال وذاكرته، وتضطره من حين لآخر إلى التفكير ومحاولة الإصلاح .

أما الصدمة الحقيقية التي أصابت إقبال، وأجبرته إجباراً ليس على التفكير فقط، وإنما على الدراسة المقارنة أيضاً، وهدته إلى تكوين فلسفة معينة ونظرية خاصة دعا إلى تطبيقها فيما بعد، هذه الصدمة كانت وصوله إلى أوروبا، ورؤيته المجتمع الأوروبيّ على الطبيعة وليس على مستوى النماذج فقط، هناك أصابته الدهشة واخيرة، إذ رأى النقيض لما رآه في بلاده؛ تقدم صناعي وتقنيّ كبير، ومستوى معيشيّ راق، ومستوى تعليميّ وثقافيّ وفكريّ أرقى، وبيئة أكثر نظافة وأبعد عن الصراعات الطائفية المدمرة، ومجتمع لا تسيطر عليه الخرافات والأوهام، ثم إنه مجتمع حرّ – وإن كان يسلب الآخرين حرّيتهم – يحكم نفسه بنفسه .

هذا التناقض الذي رآه إقبال كان بمثابة الصدمة العنيفة التي هزت كيانه هزّاً، وكادت تفقده توازنه، فأعلن براءته من الشعر وقرضه، إذ رأى في قرض الشعر رفاهية ولهواً لا يحقّ له ممارسته طالما كان شعبه يرصف في أغلال الاحتلال والعبودية والجهل والتخلف . وبالفعل امتنع عن قرض الشعر لفترة، ولم يعد إليه إلا بعد أن أقنعه الشيخ عبد القادر رحمه الله هو والسيد آرنولد – أستاذ إقبال – بأن أمثاله ممن وهبهم الله هذه الملكة الشعرية الدافقة قليلون، ويمكن له أن يحقق بشعره لبلاده ما يعجز غيره عن تحقيقه بالوسائل الأخرى، وسيظل الأدب الأردي يذكر للشيخ عبد القادر والسيد آرنولد هذا الجميل بالعرفان، كما ستظل باكستان تذكرهما بالخير والثناء، إذ لا يدري أحد ماذا كان سيحدث لو ترك إقبال الشعر؟! وهل كانت باكستان ستظهر إلى حيّز الوجود السياسي؟! وهل كان أحد من خارج شبه القارة الهندو باكستانية سيدري شيئاً عن الأدب الأرديّ أو يهتم به ؟!.

على أية حال فإنه بالرغم من الصدمة التي أصابت إقبال بوصوله إلى إنجلترا، إلا أنه لم يصب بانهزامية فكرية وحضارية كتلك التي أصابت كثيرين ممن عاشوا في أوروبا من أبناء الدول المحتلة، كما لم تستهوه أثناء إقامته هناك البدع، أو يخدعه البريق فينغمس في الشهوات والملاهي، بل كان يعقد المحاضرات يتحدث فيها عن الإسلام وأحكامه العادلة، وعن اشتراكيته وسماحته المشرقة، وعن عقيدته الشريفة التي تجعل الإنسان لا يحني رأسه إلا لله (٢٦) . ونتج عن ذلك كله إقبال لدى محمد إقبال على مزيد من الدراسة والفهم والمقارنة وإعادة ترتيب الأمور من جديد، فأنعم الله عليه بفيض من عنده، واستطاع ترتيب أفكاره وإبداعاته في شكل نظريات واضحة وفلسفة عميقة دعا إليها وعمل على نشرها، واستخدم في ذلك ملكته الشعرية التي وهبها الله إياها، فمزج بين الشعر وهو الفن الرقيق، والفلسفة وهي العلم الجاف، وما كان ذلك إلا لقوة ثقافته وعمق دراسته، بالإضافة إلى نعمة الله عليه في الشعر وما هيّأه له من تربية صالحة .

ومن الطبيعيّ والحال هكذا أن تقوم فلسفة إقبال على الحركة والنشاط بدلاً من الجمود والغفلة، وأن تدعو إلى التغيير والثورة بدلاً من النمطية الخاطئة والارتكان إلى ما هو ميسّر وعدم الرغبة في المزيد، وأن تؤكّد على التوكل الذي يلازمه العمل والأخذ بالأسباب، وتحثّ على البعد عن التواكل الذي يدعو إلى الخمود والكسل .

الحركة في فلسفة إقبال :

لقد كان ما يهدف إليه العلامة إقبال من وراء أفكاره ونظرياته وفلسفته هو بناء الشخصية المسلمة الحقة التي أراد الله تعالى لعباده أن يصطبغوا بصبغتها، وتحرير هذه الشخصية من أغلال العبودية لغير الله، ولذا فقد درس إقبال نتاج الفكر الإنساني بعامة، شرقه وغربه، وحاول بما وهبه الله من قلب واع وفؤاد مدرك أن يستخلص منه ما يفيد في تحقيق هدفه، وأن ينقد منه ما كان غير ذلك، وهو في كل حال يضع نصب عينيه كتاب الله وسنة رسوله، ويؤمن تمام الإيمان بأن شرع الله وقانونه هو الحق ولا حق غيره، سواء قال بذلك الإنسان، أو حاول الجحود والإنكار بدافع التحلل من القيود والضوابط، وإطلاق العنان للنفس الأمارة بالسوء لتعيث في الأرض فساداً .

واستطاع إقبال في نهاية الأمر أن يقدم لنا مجموعة من النظريات حول جوانب الحياة المختلفة تعدّ فلسفة متكاملة لخلق الشخصية المسلمة، أو كما سماها هو مرد خدا:رجل الله (٢٧)، فيقول في معرض حديثه عن مسجد قرطبة :

- إلا أن الخلود والدوام يكتبان للعمل الذي ينجزه أحد رجال الله .
- فعمل رجل الله – بفضل العشق – له الدوام، إذ العشق أصل الحياة، والموت عليه حرام (٢٨) .

ويقول في إحدى الغزليات التي كتبها عن الشاعر الحكيم سنائي:متوفى ٥٣٥هـ بعد زيارة ضريحه أثناء زيارته لكابول بدعوة من محمد نادر شاه ملك أفغانستان عام١٩٣٣م (٢٩) :

- أيها الدراويش، كيف رجل الله هذا الذي يعتلج صدره كيوم القيامة .
- ويضيء كالشعلة من حرارة الذّكر، وهو أسرع من البرق في صحيح الفكر (٣٠) .

ولأن شخصية رجل الله هذه هي محور فلسفة إقبال وهدفها، فقد قدم نظرية الذات : خودي لتربيتها وخلق الصفات الحميدة فيها، ونظرية إنكار الذات : بے خودي والتي تعتمد على إنكار الذات ونفيها لصالح الجماعة.وليس القضاء عليها ومحوها :

- وجود الأمة حقيقيّ، ووجود الأفراد مجاز، فلتكن فداءً للأمة، وأشعل النار في طلسم المجاز (٣١) .
- يبقى الفرد بارتباطه بالأمة، وهو وحده لا شيء، كالموج بداخل النهر، وهو خارجه لا شيء (٣٢) .

وذلك كله حتى يصير الإنسان جديراً بخلافة الله في الأرض:وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، قال إني أعلم ما لا تعلمون (٣٣)، ويستطيع تحقيق حكمة الله من وراء خلقه : إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها، وأشفقن منها، وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً (٣٤)، إذ أن الإنسان في نظر إقبال هو أعظم مخلوقات الله تعالى وأرقاها

رغم أنه مخلوق ترابيّ بسيط، ولذا تخشى رقيّه الكواكب، فهو في نظرها مجرد نجم ضعيف غير كامل، لكنه في الحقيقة يحمل بداخله عناصر القوة والكمال :

- النجوم لرقيّ آدم الترابيّ ذاهلة، فلربما صار هذا النجم المحطم بدر التمام (٣٥) .

وواقع الأمر أن فلسفة إقبال – كما ذكرنا – تقوم على الحركة، وتعتبرها هي الحياة كما يتضح من أشعاره الأردية إذ يقول :

- الحياة كالموت إن خلت من الثورة، فإن حياة روح الأمم هي الثورة (٣٦) .
- أنت كالعبق محبوس في البرعم فعليك أن تنتشر، وامتط ظهر الهواء في الروضة .
- فإن كان ما تملكه قليل فلتصبح بدلاً من ذرّة صحراء، ولتصبح بدلاً من نغمات الموج هدير طوفان .
- لترفع بقوة العشق كل مهان، ولتتر باسم محمد صلى الله عليه وسلم في الزمان (٣٧) .
- كن شعلة واحرق ما سوى الله، لماذا تخشى الباطل وأنت تهزمه دائماً (٣٨) .

فإقبال في الأشعار السابقة يقول صراحة بأن الحياة التي تخلو من التغيير والحركة الدائمة – حتى ولو كانت عنيفة – لا قيمة لها، ولا تستحق أن تسمى حياة، خاصة فيما يتعلق بالأمم والشعوب، ولكن لا يفهم من هذا بأن إقبال يدعو إلى الثورات على إطلاقها، إنما تتجه دعوته إلى الثورة على الباطل ومواجهته والقضاء عليه، ولذا فهو يطلب من المسلم أن يتحرك هنا وهناك في أطراف الحديقة – الدنيا – وجوانبها وينشر شذاه، إذ هو في الحقيقة شذىً، ولكن لا يجب أن يحبس نفسه داخل البرعم فلا يصل عبقه إلى أحد، وإنما عليه أن يخرج من البراعم والزهور، وينتشر في الربوع كلها ليحظى برائحته الجميع، لكنه عندما يصادف الباطل يتحول إلى شعلة من النار تحرق هذا الباطل وتقضي عليه دون تردد أو خوف، لأن الحق دائماً هو المنتصر، والباطل هو الزّهوق أبداً، وإذاً فعبير المسلم ورحيقه للبشر كافة، ولكن غضبه وانتقامه يكون من الباطل فقط، وهو ما يؤيد عالمية رسالة إقبال وفلسفته وعدم انحصارها في أمة دون أخرى . وفي منظومة له بعنوان **خطاب به جوانان اسلام** : خطاب إلى شباب الإسلام ينقد

إقبال شباب جيله لأنهم اكتفوا بالكلام وهم جلوس، بينما كان أسلافهم العظام أقل كلاماً وأكثر عملاً :

- لا يمكن أن تكون لك علاقة بأسلافك، فأنت قول، وكانوا هم عملاً، أنت ساكن، وكانوا نجوماً سيارةً (٣٩) .

وتجلت فلسفة الحركة عند إقبال في منظومته الطويلة خضر راه : خضر الطريق حين يقول الخضر رداً على تعجب الشاعر من تجواله في الصحارى والجبال وعلى صفحات الأنهار بعيداً عن العمران والزحام (٤٠) إن هذه هي الحياة الحقيقية، وإن الانحصار بين جدران المنازل لا يناسب الإنسان الحق، لأنه يحرمه من التجوّل في ملكوت الله ومشاهدة قدرته، يقول :

- لماذا تعجب من تجوالي في الصحراء، فهذا التحرك الدائم هو دليل الحياة .
- يا حبيس البيت، أنت لم تر ذلك المنظر، حين يهزّ فضاء الصحراء صوت جرس الرحيل .
- لم تر هَادي الغزال فوق أودية الرمال، تقيم بلا أمتعة حيث كانت، وتسافر بلا حدود حيث شاءت (٤١) .

وهكذا يرى إقبال أن الركون إلى الراحة ضد مقتضيات الحياة الصحيحة، وأن الاستقرار في مكان والثبات عليه وعدم محاولة التقدّم والتغيير إلى الأفضل لا يختلف عن الموت في كثير، وكأنه يذكّرنا بقول الله تعالى : هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور (٤٢)، ولذا فإن إقبالاً يرى في طائر الشاهين تجسيداً للشخصية المسلمة الحقة، إذ الشاهين لا يبني لنفسه عشّاً، وإنما يتخذ من قمم الجبال مقراً لا يستقر فيه، ولا يطير مع الأدنى منه، ولا يأكل ميتةً ولا من صيد غيره، وهو في حركة مستمرة لا يتوقف أبداً، بل إنه يواصل التدريب والتمرين في أوقات فرصته ليكون مفيداً له في رحلته، وهو حادّ البصر واضح الهدف عزيز النفس لا يقبل الذلّ أو الإهانة :

- اعتزلت العالم الأرضيّ حيث الرزق حبّ وماء .
- وحبّبت إليّ خلوة الصحراء، فأنا بفطرتي راهب منذ الأزل .
- فلا ربيع هناك، ولا قاطف زهور، ولا بلبل، ولا نغمات لوعة العشق المريضة .

- لا بدّ لي من اعتزال ساكني الحدائق، فحركاتهم وسكناتهم تخلب اللّب.
- بينما تزداد من هواء الصحراء قوة الشباب وعزيمتهم .
- لست طامعاً في الحمام واليمام، فإن حياة الصقر حياة الزّهاد .
- أكرّ وأفرّ، وأفرّ وأكرّ، وما كل هذا إلا لحفظ حرارة دمي .
- المشرق والمغرب دنيا الفراشات، ودنياي السماء اللانهائية .
- لا يبني الشاهين لنفسه عشّاً أبداً، فأنا درويش دنيا الطيور (٤٣).

ويطلب من المسلم أن يواصل حركته وسعيه، إذ العالم ليس لوسعته انتهاء، وعليه ألاّ ييأس إذا فشل مرّةً أو مرات، وإنما عليه أن يحاول مرة ومرات، ولا بدّ أنه سيصل إلى هدفه، لأن الله خلق في فطرته من الأسباب ما يمكّنه من الوصول إلى الهدف حتى وإن كبا مرات ومرات :

- هناك وراء النجوم عوالم أخرى، وما زال للعشق ابتلاءات أخرى .
- هذا الفضاء ليس خالياً من الحياة،وقد مرّت هنا مئات القوافل الأخرى.
- لا تقنع بعالم اللون والروائح"الدنيا"،فهناك رياض أخرى وأوكار أخرى
- إن فقدت عشّاً فلا تحزن،فللآهات والأنين مقامات كثيرة أخرى .
- أنت شاهين، والطيران فطرتك، وأمامك سماوات كثيرة أخرى .
- لا تنشغل بعالم الليل والنهار، فأمكنتك وأزمنتك كثيرة أخرى .
- مضى الزمن الذي كنت فيه وحيداً في المجلس، والآن أصبح لي ندماء كثيرون أخر (٤٤) .

ولأن فلسفة إقبال تتمحور حول الحركة والسعي الدائم والتغيير والثورة، فقد أيّد بشدة الثورة البلشفية التي حدثت عام ١٩١٧م بروسيا، وإن كان قد انتقدها فيما بعد حين تبينت له سلبياتها، وقد كتب إقبال منظومة من ثلاثة أجزاء تأييداً لهذه الثورة؛ الجزء الأول بعنوان **لينين خدا كے حضور مين** : لينين في حضرة الله، والجزء الثاني بعنوان **فرشتون كا كيت** : أغنية الملائكة، والجزء الثالث بعنوان **فرمان خدا فرشتون سے** : أمر الله للملائكة، وفي هذا الجزء الثالث تتجلى دعوة إقبال إلى الحركة والتغيير والثورة لرفع الظلم :

* انهضوا يا ملائكتي وأيقظوا في دنياي الفقراء، وزلزلوا جدران قصور الأغنياء .

* أخلقوا الحماس في دماء العبيد بحرقة اليقين، وشجّعوا العصافير على حرب الشاهين .

* وقت حكم الشعب قد حان، فحطموا ما يصادفكم من العهد البائد .

* إن الحقل الذي لا يوفّر الرزق لزارعيه، عليكم إحراق كل سنبلة قمح فيه .

- لماذا تحول الحجب والأستار بين الخالق والمخلوق؟! أخرجوا كهنة الكنائس من الكنائس .
- ليس الدّين مجرد السجود للحق والطواف حول الصّنم، الأفضل أن تطفئوا مصباح الدير والحرم .
- لست راضياً عن هذه المباني من حجر المرمر، ابنوا لي من الطين حرماً آخر .
- الحضارة الجديدة حضارة صنّاع الزجاج، فعلّموا شاعر الشرق آداب الجنون لمحوها (٤٥) .

ويرى إقبال أن المسلم الحق لا يكفّ عن السعي أبداً، حتى ولو ظهر هذا السعي في شكل احتجاج على وضع قائم لا يستطيع تغييره، ورفع الصوت بتوضيح المواقف وإعلان الحق، يقول :

- اسمع صرختي سواء كان لها أثر أم لا، فهذا العبد الحر لا يطلب الثناء .
- هذا المخلوق من قبضة تراب"الإنسان"، وهذه المصائب، وهذه الأفلاك الواسعة، هل هذا كرم من حبّك الخلق أم ظلم ؟!.
- لم تستطع خيمة الزهور أن تصمد أمام الهواء في الحديقة، فهل هذا هو فصل الربيع أم رياح عاتية ؟!.
- أنا مذنب وغريب الدار لكن ملائكتك لم تستطع تعمير خرائبك"الدنيا".
- دنياك الزائلة هذه، وهذه الصحاري القفر، كلها تدعو لي بسبب كفاحي واجتهادي
- إن فطرتي المحبّة للمخاطر لا تناسبها تلك الحديقة التي تخلو من الصياد .

• ومقام الشوق ليس في استطاعة ملائكتك، فذاك عمل أصحاب الهمم العالية (٤٦).

السكون " الصمت " في فكر إقبال :

يتميّز الشعراء والفلاسفة والمفكّرون بشكل عام بميلهم إلى الصمت والسكون،ذلك لأنه يمكنّهم من التأمل وإعمال الفكر والتعبير عن مكنون النّفس،والعلامة إقبال من الشعراء المفكرين الذين كرّسوا حياتهم وإبداعهم للنهوض بالإنسان بصفة عامة،وكان للصمت دور ومكانة في فكره وإبداعه .

ورغم أن فلسفة إقبال تقوم على الحركة وتعتبرها هي الحياة، إلاّ أن ذلك لا يعني أن إقبال قد رفض الصمت وحذّر من السكون على خطّ مستقيم، بل على العكس من ذلك، فعندما نطالع أشعار إقبال الأردية كاملة متدرّجين معها من البداية نرى أن فلسفة إقبال تعطي دوراً أساسيّاً للصمت والسكون، ونستطيع أن نتبّع هذا الدّور من خلال الألفاظ التي تدلّ على الصمت والتي استخدمها إقبال في أشعاره مثل:**خاموشي**:الصمت – **خاموش**:صامت – **سكون**:سكون – **سكوت**:سكوت – **خلوت**:خلوة – **تفكر كا سمان**:حالة من التفكير – **ويران**:قفر – **اداس** : حزين ووحيد – **نهان**:خفيّ – **غفلت** : غفلة – **تنهائي** : وحدة – **عزلت** : عزلة ، وغيرها .

ولكي نتعرف على نظرة إقبال إلى الصمت وأهميته في شعره لا بد أن نتابع مراحل تطور الفكر لدى إقبال، وفي نفس الوقت نحاول أن نقتفي أثر استعماله لألفاظ الصمت وما في معناه حتى نصل إلى نتيجة صحيحة خالية من المبالغة أو التضليل .

وبغض النظر عن الاختلاف في تقسيم مراحل تطور الفكر لدى إقبال عند كثير من الدارسين المتخصصين في دراسات إقبال، فإننا سنحدد هذه المراحل بما يتناسب مع دراستنا التي نقدمها عن الصمت،ولذا فإن المرحلة الأولى التي مرّ بها فكر إقبال–وأشعاره تبعاً لذلك–تبدأ منذ قوله الشعر وحتى عام ١٩٠٥م،أي العام الذي سافر فيه إلى أوروبا طلباً للعلم والدراسة،وقد بدأت هذه المرحلة قبل قدوم إقبال إلى لاهور للالتحاق بالجامعة–إذ لا بد أنه قال

الشعر في مرحلة ما قبل الجامعة،وهناك بعض الأبيات القليلة التي تثبت هذا وإن لم تشملها دواوينه فيما بعد(٤٧)– لكنها تبدأ عملياً مع صدور العدد الأول من جريدة مخزن في أبريل عام ١٩٠١م،وهو العدد الذي نشر فيه إقبال قصيدة هماله،وتصدّرت ديوانه الأردي الأول بانگ درا:صليل الجرس.في هذه المرحلة تميّزت أشعار إقبال بالسهولة والبساطة والبعد عن التعقيد والتأثر بالتراكيب الفارسية والأفكار الغربية، هذا من ناحية الأسلوب،أما من حيث الموضوعات فقد كانت الوطنية وحبّ الوطن من أبرز ما كتب إقبال في تلك المرحلة رغم وضوح ارتباطه قلبياً بالأمة الإسلامية،وكان ذلك في الحقيقة أمراً طبيعيّاً،إذ أن بداية القرن العشرين كانت بداية للحركات الوطنية في شبه القارة الهندية المحتلّة في ذلك الوقت،وكانت هذه هي السمة الغالبة على شعراء تلك الفترة ومن بينهم إقبال،ولهذا فقد تلقّفت الجرائد والمجلات ما ينظمه من شعر،وإن كانت جريدة مخزن–سابقة الذكر – قد استحوذت منه على نصيب الأسد، ومن خلالها بدأت شهرته بين الناس .

ورغم أن إقبال في هذه المرحلة العمرية لم يكن صاحب نظريات معينة في قضية إصلاح المسلمين، لكن اتجاهه العام كانت تغذّيه تربيته الأولى في بيت والديه والتي اتصفت بالتديّن والميل إلى التصوف، وكان هذا هو الإطار العام لشعره وفكره في تلك المرحلة، فتدافعت عليه الجمعيات الدينية والأدبية في لاهور، وطلبت منه أشعاراً لمناسبات خاصة، لكنه خصّ جمعية حماية الإسلام : انجمن حمايت اسلام على وجه التحديد (٤٨) بتلبية طلبها، فكتب لها منظومات عديدة قرأها في جلساتها السنوية . على أية حال لم تكن نظريات إقبال وفلسفته في هذه المرحلة الأولى قد تحددت معالمها، وإنما كانت عبارة عن أفكار متناثرة غير مترابطة، وإن كانت تحمل بداخلها بذور هذه النظريات، وعلى وجه الخصوص نظرية الذاتية، كما أظهر شعر إقبال قدراً كبيراً من الإحساس بالوحدة ومحاولة البحث عن الحقيقة .

فإذا تتبعنا استخدامات إقبال للفظ الصمت والسكون وما في معناهما في أشعار هذه المرحلة وجدناها تتركز في طلب الهدوء والخلوة وفرصة التفكير والشعور بالحزن والألم لما يصيب وطنه – شبه القارة الهندية – من آلام وغفلة أبناء هذا الوطن وإغراقهم في سبات لا

يفيقون منه، بالإضافة إلى مدح الصمت واعتباره ميزة يتميز بها كل ذي حسّ رقيق، وتفضيله في كثير من الأحيان على الكلام والحديث :

الصمت أبلغ تعبيراً من الكلام :

بدراسة الأشعار التي كتبها إقبال في هذه المرحلة الفكرية الأولى والتي نشرت في ديوانه الأردي الأول بانگ درا وتضم تسعاً وأربعين منظومة ما بين صغيرة وكبيرة ومتوسطة،بالإضافة إلى ثلاث عشرة غزلية نلمس من خلالها جميعاً أن الصمت والسكون مما حبّب إلى نفس إقبال،وهما اللذان وفرا له فرصة بلورة نظرياته،ثم الجهر بها والعمل على تطبيقها،ولذا نرى إقبالاً مذ كان شاعراً مبتدءاً يمتدح الصمت ويراه أكثر تعبيراً من الكلام،لأنه يحضّ على التفكير ويساعد عليه، وهذا هو الوجه الأول من تصور إقبال للصمت والسكون ونظرته إليهما في مرحلة ما قبل سفره، ويتمثل هذا الجانب في ميل إقبال–كمثل الشعراء عامة– إلى الخلوة والوحدة،وحبّه لكل ما يساعد عليهما بما يعطي للشاعر فرصة تتفاعل فيها نفسه مع ما يحيط بها من كائنات ومخلوقات،وما يجيش بداخلها من عواطف وأفكار،وما تحمله من تطلعات وآمال،ثم التعبير عن مكنونات هذه النفس في شكل منظومات وأشعار.وقد رأى إقبال هذا الأمر في أحضان جبال الهيمالايا وفوق قممها، فامتدحها وأبان عن إعجابه بها.يقول في قصيدته همالہ ممتدحاً هذا السكون والصمت :

- ذلك الصمت في المساء والذي يفتديه الكلام، وتلك المسحة من الفكر والتي لفّت الأشجار (٤٩) .

ولأن الخلوة في نظر إقبال دائماً ضرورية لكل إنسان بما تتيحه من راحة للنفس والفكر، لذا فهو من أول أمره يرى عظمة وجلالاً فيما يدعو إلى الخلوة القلبية، وهو ما رآه بالفعل في جبال الهيمالايا حين يصفها قائلاً :

- أنت الديوان الذي مطلعه الأول هو الفلك، وأنت التي تجذبين الإنسان صوب خلوة القلب (٥٠) .

وفي منظومة أخرى بعنوان صبح كا ستاره : نجم الصباح يقدّم وصفاً للزوجة التي ذهب زوجها إلى ميدان الوغى بدافع من حبّ الوطن وهي تنتظر عودته بين اليأس والرجاء، وصمتها يخجل منه الكلام . يقول على لسان نجم الصباح :

- لأنضمّ إلى قطع الفضّة على جبهة حسناء، أو أندمج مع لهيب آهات المظلوم .
- أو أصير دمعة عالقة بالرموش، أو أسيل من عيون زوجة وفيّة .
- يلتحف زوجها بالدروع ويرحل إلى ميدان الوغى يدفعه حبّ الوطن .
- وقد صارت هي تجسيداً لليأس والرجاء، ويستحي من صمتها الكلام .
- يمنحها رضا الزوج الصّبر والجلد، ويخلق الحياء في عيونها قوة الكلام .
- يصفرّ وجهها الورديّ عند رحيله، ويتضاعف من غم الفراق حسنها.
- ورغم مجاهدتها البكاء أسيل أنا، ومن كأس عيونها الدّامعة أفيض أنا
- وأختلط بالتراب وأنال الخلود، وألقّن العالم في حرقة العشق درساً (٥١) .

الصمت ميزة ومتعة وسعادة :

وفي منظومته رخصت أيــ بزم جهان : الوداع يا محفل الدنيا والتي كتبها عام ١٩٠٤م يمتدح الصمت قائلاً :

- اتّخذت بيتاً في أحضان الجبل الصامتة . أين مثل هذه المتعة في موسيقى الحديث (٥٢) .

وإقبال يرى في الصمت ميزة كبرى يتميّز بها قلبه كما يتميز بها القمر، ولذا فهو يخاطبه قائلاً :

- أنا متّجه إلى هدفي وأنت كذلك، والصمت الذي في مجلسك هو نفسه في قلبي (٥٣)

الصمت تأهّب واستعداد :

لكن الصمت والسكون في فكر إقبال ليسا مرادفين للجمود أو الركون إليه، بل على العكس من ذلك فإنهما في نظره يهيّئان الإنسان للحركة الواعية المبنية على أساس سليم، وتؤدي إلى نتيجة صحيحة، إذ هو بالتأكيد ضد الحركة الهوجائية التي تنتج عن حماس وافر يفتقر

إلى الحكمة، أو كردّ فعل فوريّ محروم من التفكير والتعقّل، ولذا فقد رأينا الصمت والسكون في تصور إقبال وشعره يضجّان بالحركة والاضطراب، بل والثورة أحياناً، لأنه صمت فكر وتدبّر وتأهّب للتنفيذ، إذ أن السكون والصمت في حقيقة الأمر ليسا هدفاً في حدّ ذاتهما، وإنما يمثّلان مرحلة ضرورية وأساسية من مراحل الحركة والنشاط اللذان يرتكز عليهما فكر إقبال .

ولأن للصمت والسكون أهمية كبرى أثناء مراحل التنفيذ العملية لأية مهمة أو خطة، ويمثّلان مرحلة لا بد منها، ونستطيع أن نطلق عليها مرحلة التقاط الأنفاس، لذا فإن الإنسان الحق في نظر إقبال – كما اتضح فيما سبق – لا بد أن يكون في حركة مستمرة، أو بتعبير أدقّ في سباق مع الحركة، ولكن إذا غلبت النمطية على الحركة أدّى ذلك إلى نوع من الملل الذي يصدّ عن المواصلة والاستمرار، ولذا فلا بد أن يتخلل هذا السباق مرحلة يلتقط فيها الإنسان أنفاسه، ويعيد حساباته، لعلّه يغير من مسار سباقه إن وجد إلى ذلك ضرورة، فكما يبدأ السباق بمرحلة صمت وسكون تعجّ بحركة التفكير والتدبير، كذلك يأتي الجانب الثاني من الصمت والسكون لتقييم المسار واستعادة النشاط، وهذا الجانب الثاني يتجلى لنا في قصيدة إقبال أيكـ آرزو : أمنية التي يعبر فيها إقبال عن رغبته الشديدة وأمنيته الملحّة في أن يتيسر له مكان ينعم فيه بالصمت والبعد عن كل ضجيج، حتى يتسنى له التفكير وتبليغ رسالته وإيقاظ الغافلين :

- إلهي، لقد مللت من مجالس الدنيا، فأين المتعة في محفل إذ القلب حزين .
- أفرّ من الضجيج، ويبحث القلب عن صمت يفتديه الكلام .
- متيّم أنا بالصمت، وأتمنّى لو أني وجدت في حضن جبل كوخاً صغيراً.
- أتحرّر من الفكر، وأقضي الأيام بعيداً، وأطرد همّ الدنيا من القلب .
- وتكون زقزقة العصافير موسيقى تمتعني، وهدير مياه العيون قيثارة تطربني .
- وأتلقّى رسالة المحبوب من مداعبات براعم الورود، ويكون كأسي الصغير بالنسبة لي مرآة العالم .
- تكون يدي وسادتي، وأفترش العشب، وأستمتع بخلوة تستحي منها الجلوة .
- ويألف البلبل صورتي، فلا يبقى في قلبه الصغير خوف منّي .
- وعلى الجانبين تصطفّ الزروع، ومياه الجداول تلتقط لها الصور .

- ويكون منظر الجبل خلاّباً، فتنفض المياه لرؤيته أمواجاً .
- والخضرة ناعسة في أحضان الأرض، والمياه لامعة تتجوّل بين الأشجار .
- وأغصان الورود تنحني لتلامس المياه، كفاتنة تنظر وجهها في المرآة
- وعندما تزيّن الشمس عروس المساء بالخضاب، فتصير أقبية الورود ذهبية بها احمرار .
- وعندما يصيب الإرهاق السائرين ليلاً، يكون مصباحي المحطّم هو أملهم .
- وعندما تلفّ الغيوم السماء من كل جانب، فيبرق البرق ويريهم كوخي
- وطائر الليل المغرّد، مؤذن الصباح، يشاطرني وأشاطره التغريد .
- تتحرّر أذناي من أجراس المعابد وأذان المساجد، ويصير ثقب كوخي دليلي إلى السّحر .
- وعندما ينزل النّدى ليوضّئ الورود، يكون بكائي هو وضوئي، وأناتي هي دعائي .
- ويرتفع صوت أناتي في هذا الصمت حتى يصبح صليل جرس لقافلة النجوم .
- فيبكي كل ذي قلب رقيق، ويوقظ كل من هو في غفلة وسبات (٥٤) .

فهو يبحث عن الهدوء والسكون والصمت في مكان بعيد عن الضوضاء والضجيج، ولكن لكي تصل أناته القوية وصرخاته المدوّية حتى قافلة النجوم والأفلاك، ولكي يبكي على حاله كل ذي قلب رقيق، ويوقظ كل من هو سبات عميق .

الصمت كمثل الكلام :

وفي بعض الأحيان يتساوى الصمت مع الكلام، والحركة مع السكون، وذلك عندما يصبح لكل منهما دوره الذي يؤديه، أو عندما يستطيع كل منهما أن يؤدي الغرض الذي يريده إقبال، فإذا استطاع الصمت أن يؤدي دور الكلام، ويحدث نفس تأثيره فهو مساو له في الأهمية، فيفتتح منظومته تصوير درد : صورة الألم بهذا البيت :

- لن أحمل معروف من يسمع قصتي،فالصمت حديث، وسكوتي هو لساني (٥٥) .

الصمت يبعث على الضرر :

أما إذا كان الصمت سلبياً، وضرره أكثر من نفعه، فإن إقبال يستنكره، ويدعو إلى الإفصاح حتى وإن كان صراخاً . يقول في معرض حديثه عن الحالة السيئة التي وصل إليها المسلم :

- إلى متى هذا الصمت؟! أخلق متعة الصراخ، ولتكن على الأرض وصوتك يشقّ عنان السماء (٥٦) .

الصمت أصيل في الكائنات :

وفي منظومة له بعنوان **جكنو** : اليراعة يتحدث إقبال عن مظاهر القدرة الإلهية في المخلوقات، هذه المظاهر التي تنبع كلها من مصدر واحد، وهذا يعني أن سرّ الوحدة يكمن في الكثرة، ولذا فلا مجال للاختلاف إذا كان صمت الأزل كامناً في كل شيء، وإذا كانت الصور المختلفة التي نراها تعود إليه، يقول :

- أهذا ضوء اليراعة في صحن الحديقة؟! أم هو نور شمعة في مجلس الورود؟!.
- أم نجم من السماء طار، وفي الحديقة نزل؟! أم هو شعاع من القمر نفخت فيه الروح؟!.
- أم هو للنهار في مملكة الليل سفير، وقد لمع في الغربة بعد إذ كان في الوطن مجهولاً؟!.
- أم هو زرّ من رداء القمر قد سقط؟! أم ذرّة مشعّة برداء الشمس تلتحف؟!.
- أم هو من الجمال الإلهي إشراقة خفية أتت بها القدرة إلى دنيانا من خلوة عليّة؟!.
- قمر صغير به ضياء، وظلام كذلك، يلحقه الخسوف،ويزول عنه كذلك.
- الفراشة تطير، وكذا اليراعة تطير، لكن الأولى تطلب الضياء، والأخرى كلها ضياء
- منحت القدرة كل شيء في الوجود جمالاً، حرارة العشق في الفراشة، وفي اليراعة الضياء .
- وعذوبة الصوت في الطيور الخرساء، وعلّمت الورود الصمت برغم اللسان .
- وجمال مشهد الشّفق عند الزوال، فهو حور مشرقة منحته عمراً قصيراً .

- زيّنت الصبح كعروس بارعة الجمال، ومنحته وشاحاً أحمر، ومن الندى مرآة .
- منحت الشجر ظلالاً، والهواء طيراناً، والماء انسياباً، والموج اضطراباً .
- لكنّ الفرق لحن صنعناه، سوى أن ليلنا عند اليراعة نهار .
- جمال الأزل في كل شيء موجود، هو النطق في الإنسان، وفي البراعم نور وألوان .
- والقمر في السماء كأنه قلب شاعر، وضياؤه في جنبه ألم وأنين .
- خدعتنا أساليب الكلام، وإلاّ فشدو البلابل شذىً، وعبق الورد تغريد.
- سرّ الوحدة في الكثرة كامن، وضوء اليراعة روائح الورود .
- فلماذا يصير الاختلاف خلافاً إن كان صمت الأزل في كل شيء أصيل(٥٧) .

الصمت مظهر من مظاهر الجمال :

والصمت عند إقبال قد يكون هيبة ووقاراً، ومظهراً من مظاهر الجمال، فيقول في منظومة له بعنوان **بچه اور شمع** : الطفل والشمعة متحدثاً عن مظاهر الجمال في المخلوقات :

- مجلس القدرة بحر من الجمال لا حدود له، ترى العين في كل قطرة منه طوفاناً من الجمال .
- الجمال في صمت الجبال المهيب، في ضوء الشمس،في ظلمة المساء.
- في صفاء السماء وقت الصباح، في عتمة المساء ولون الشفق الوردي .
- في الآثار الدارسة للمجد القديم، في محاولة الكلام من طفل لا يعرف بعد الكلام .
- في تناغم ساكني الرياض معاً، في بناء الطيور الصغيرة للأعشاش .
- في عيون المياه في الجبال، وفي حرية النهر، في المدينة، في الصحراء، في القفر وفي العمار .
- لكن الروح هائمة وراء شيء مفقود، وإلاّ فلماذا تنّ كالجرس في هذه الصحراء .
- ولا قرار لها في هذا التجلّي للجمال، وحياتها كسمكة خرجت من الماء (٥٨) .

الصمت مقام عبرة :

وفي منظومة له بعنوان كنار راوي : شاطئ نهر الراوي جعل إقبال من الصمت مقام عبرة، وباعثاً على الفكر والشجن، يقول :

- الراوي مستغرق في غنائه في صمت المساء، فلا تسلني عن حال قلبي الآن .
- تلقيت من نغماته رسالة بالسجود، فصارت الدنيا بمثابة حرم يملؤه المصلّون .
- وأنا أقف على شاطئ مياهه الجارية، ولا أشعر أين أقف أنا .
- اكتسب حضن المساء من الشراب القاني لوناً، وشيخ الفلك يحمل الكأس في يده المرتعشة .
- وقافلة النهار مسرعة الخطى نحو العدم، وكأن الشفق ورود صنعت من الشمس .
- وبعيداً، تقف مضاعفةً من جلال الوحدة منائر ضريح الفارس الجغتائي(٥٩) .
- هذا المكان يقصّ تصاريف الزمن، كأنه كتاب يحكي زمن الأسلاف .
- أيّ مكان هذا؟! كأنه لحن صامت.أيّ شجر هذا؟!كأنه مجلس بلا صوت
- وسفينة على صفحة مياه النهر مسرعة،وربّانها يصارع بقوة الأمواج
- سفينة تنساب في سيرها كالنظر، ثم تتوارى خلف حدود البصر .
- وهكذا سفينة حياة الإنسان،تظهر في بحر الأبد أحياناً،وتتوارى أحياناً.
- تتوارى عن البصر ولكن بلا فناء،ولا تعرف أبداً هزيمة والحناء(٦٠).

الصمت يثير الحزن والبكاء :

وفي إحدى غزلياته يقول :

- إلهي، في أي دنيا يعيش هؤلاء العشاق، أوضاعهم عجيبة ومختلفة عن العالم أجمع .
- أعالج الألم، ومغرم بلذّته حتى أنّي أخرجت الأشواك من قدمي بسنّ الخياط .
- إلهي، لتحفظ حديقة آمالي خضراء يانعة، فلقد رعيت بدماء كبدي كل نبتة فيها .
- يبكيني صمت النجوم بالليل، عشقي عجيب، وأناتي عجيبة .
- لا تسلني عن متعتي في تدمير البيت، لقد صنعت مئات الأعشاش ثم أحرقتها .

- انتظرنا أيها الشرر، فنحن أيضاً إلى فناء، وتجنّب رفاق السفر ليس بمستحسن .
- علّم الوعد بالحور الواعظ كل شيء، فهو يبدو في الظاهر طيباً مستقيماً .
- ولم لا أعجب بأشعاري يا إقبال؟! إنها آنات مؤلمة من قلبي المحطّم (٦١) .

ورغم أن فلسفة إقبال لم تتبلور إلاّ بعد سفره إلى أوروبا والعودة منها إلى أرض الوطن كما سبق أن أشرنا،إلاّ أن استخدامه للفظ الصمت في أشعاره التي نظمها قبل سفره إلى أوروبا تنمّ عن فكر عميق وإحساس مرهف وشعور واضح وإدراك تام لما يدور حوله من أحداث،وما أصاب قومه من جرّاء الاحتلال الإنجليزي لبلاده،ولم يكن ذلك إلاّ لأنه شاعر محبّ لوطنه فقط،وإنما نجد ملامح فكره واضحة،وجذور فلسفته بارزة تدلّ قارئها والمتمعن فيها على شخصية فذّة في طريقها إلى مكانة عليا تتبوّؤها في ميدان الفكر والفلسفة،ولذا فإن استخدامه للفظ الصمت في أشعار ما قبل سفره إلى أوروبا لم يكن للتعبير فقط عن حالة من الفكر والحزن الذي يعرض للشعراء عامة، وإنما كان يحمل بداخله إشارات جلية لحركة ثائرة،وثورة عارمة تموج في أعماق الشاعر نتيجة مشاهداته الدائمة لكل ما تقع عليه عيناه،وما تسمعه أذناه،مضافاً إلى ذلك أثر التربية الدينية التي توفّرت له في بيته ومجتمعه،وكانت هذه الثورة العارمة تمهد لنفسها الطريق كي تخرج حين يحين وقتها في شكل فكر واضح محدّد المعالم صقلته التجارب وهذّبته الدراسة والاطلاع،ولذا فإن كان إقبال قد رأى في أحضان جبال الهيمالايا الخلوة التي نشدها"همالله"،وأبان عن رغبته الملحّة في العيش في كوخ صغير في أحضان الجبال بعيداً عن الضجيج متحرراً من أثر الدير والحرم"ايكـــ آرزو:أمنية"،أو أن يحتويه نهر كنكا بين أمواجه فيغرقه ليخلّصه من النيران التي تضطرم بين جنباته"صدائـــ درد:صوت الألم"،فإن ذلك لا ينبغي أن يفهم على أنه هروب من هزيمة نفسية،أو إحساس بإحباط أو ملل من الحياة،وإنما كان الدافع هو حبه لوطنه،وحزنه على ما أصابه،وهو ما تتميز به الفترة الأولى من فترات شعره،والذي ما نبث أن ترجمه إقبال إلى تعبير عن يأسه من الخلافات الدينية والطائفية التي تمزّق أبناء الوطن الواحد في منظومة نيا شوالـه:المعبد الجديد فقال

- أيها البرهمن، أصدقك القول إن لم تغضب، لقد عفا الزمن على أصنام معابدك .

- تعلّمت معاداة أبناء جلدتك من الأصنام، واتّخذ الواعظ لنفسه طريق الخلاف والجدل .
- ضقت في النهاية ذرعاً بالدير والحرم وهجرهما، أعرضت عن وعظ الواعظ، وعن أساطيرك .
- ظننت أن الله في تماثيلك الحجرية، وكل ذرة من تراب الوطن مقدّسة لديّ .
- تعال نكشف السّتار مرّة عن وجه هذه الغربة، ونعيد المفترقين ثانية، ونمحو كل أثر للثنائية .
- دنيا القلب مقفرة من زمن بعيد،تعال نبني في هذا الوطن معبداً جديداً.
- لترتفع قبتنا فوق قبب العالم، ونجعل العلائم فوقها تلامس أحضان السماء .
- وننشد كل صباح الترانيم الجميلة،ونسقي النسّاك جميعاً خمر المحبة.
- القوة في أناشيد النسّاك، والسكون كذلك، وخلاص أهل البسيطة في المحبة (٦٢) .

ويبلغ يأس إقبال من استمرارية الوضع الراهن بين أبناء أمته مداه في منظومته **خفتكان خاكـ سـ استفسار** : سؤال لأهل القبور التي تنمّ عن بعض التغيير في الهدوء الذي ينشده إقبال، فهو هنا يجد الصمت عند المقابر بدلاً من أحضان الجبال، ويستفسر من أهلها عن العالم الذي يضمّهم :

- هل الإنسان هناك أيضاً غريب عن حقيقته، وهل هناك المجانين بالتفرقة على أساس الملّة والقانون .
- هل العالم هناك أيضاً بالظلام معمور، أم أنه من تجليات المحبة بقعة من نور (٦٣) .

ثم يجد الشاعر هذا الهدوء وهذا الصمت في أحضان الفطرة والطبيعة كما يبدو من منظومته **رخصت أيـ بزم جهان**:وداعاً يا محافل الدنيا والتي أشرنا إليها سابقاً،ويقول فيها :

- يرغب الجميع في الاختلاط بمحافل الدنيا، لكن قلب الشاعر يميل إلى الاعتزال والوحدة (٦٤) .

وتصبح هذه الوحدة انفرادية في الإبداع في قصيدة **جاند**:القمر إذ يقول مخاطباً القمر :

- لي محفل أنا أيضاً حيث أعيش،لكنك متفرّد في محفلك،وأنا كذلك(٦٥).

أما المرحلة الثانية من مراحل التطور الفكري لدى إقبال فهي التي تبدأ من سفره إلى أوروبا عام ١٩٠٥م لمواصلة دراساته العليا،وتستمر– طبقاً للتقسيم الذي اعتمدناه هنا بما يتناسب مع طبيعة البحث– حتى عام ١٩٢٤م،وهو العام الذي طبع فيه ديوانه الأردي الأول **بانگ درا**: صلصلة الجرس،وهذه هي المرحلة التي اكتملت فيها فلسفة إقبال،ونضج فيه فكره،واستقرت فيها نظرياته.وتتسم هذه المرحلة– بالإضافة إلى ما سبق – بميل إقبال إلى الرومانسية في أشعاره،وظهوره كمبلّغ يهتم بنشر رسالة معيّنة واضحة، كذلك تتّسم هذه المرحلة بإظهار عدم الرضا عن الحضارة الغربية، والتصريح بنقد وسائلها، وتأييد الفكر الإسلامي، والحضّ على تبنّي الحضارة الشرقية والتمسّك بها بدلاً من تقليد الغرب . ويعدّ تصريح إقبال برفض نظرية القومية بالمفهوم السياسي الغربي، والذي يعتمد على الحدود السياسية والجنس واللون واللغة، من أهم مميزات هذه المرحلة .

ومن السمات الواضحة لهذه المرحلة في فكر إقبال اتجاهه إلى قول الشعر بالفارسية جنباً إلى جنب مع الأردية،حتى صار أكثر ما كتبه فيما بعد بهذه اللغة التي كانت تعدّ في ذلك الوقت من أهم لغات الحضارة الإسلامية ومن أكثرها انتشارا.ومن هنا فقد كان استعمال إقبال للفظ الصمت وما في معناه في هذه المرحلة ذا مدلول فكريّ وفلسفيّ خاص عبّر عنه في أشعاره بما يخدم نظرياته التي دعا إلى تطبيقها .

الصمت لحن في قيثارة القدرة الإلهية وتعبير عن الآلام وحكاية الماضي :

فإذا ما تتبعنا أشعار إقبال بعد عودته من أوروبا واستقراره في الهند، ووضوح الرؤية أمام فكره، وتكريس شعره لتبليغ رسالته، وجدنا توجيهات وتفسيرات فلسفية للصمت، فيرى فيه تعبيراً عن الآلام، ويراه نغمة هادئة في قيثارة القدرة الإلهية . يقول في منظومة له بعنوان **كورستان شاهى** : المقبرة الملكية واصفاً المشهد الذي كان أمام عينيه وقت زيارته للمقابر الملكية للدولة القطب شاهية التي حكمت في جنوب الهند من عام ١٥٠٩م حتى عام ١٦٨٧م في رثاء لها :

- السماء متشحة بوشاح السحاب القديم، ومرآة جبهة القمر علاها بعض الغبار .

- وضوء القمر خافت في هذا المشهد الصامت، وكأن الصبح الصادق في أحضان الليل نائم .
- إلى أيّ مدى يزيدني صمت الأشجار شجوناً، فالصمت لحن هادئ في قيثارة القدرة .
- إنّ قلب كل ذرة في العالم يمتلئ ألماً، والصمت آهة حارة على شاطئ الحياة .
- آه، تلك القلعة(٦٦)، ساحة شجاعة عالمكير(٦٧)، تحمل على كاهلها عبء مئات السنين .
- كانت يوماً بالحياة عامرة، والآن صامتة مقفرة، وكأن هذا الصمت لماضيها مقبرة .
- إنها مغرمة بأهلها القدامى، وتقف كالحارس على قمة الجبل .
- قلوبنا لا تخلو من ذكريات الماضي، وأمّتنا لا تنسى سلاطينها .
- وهذه الأنقاض مبعث بكائنا، وإلا فعيوننا المبللة بالدموع تبصر بفضل دوام البكاء .
- نعطي الزمان لآلئ مآقينا الدامعة،فنحن آخر السحب في طوفان سبق.
- ولا تزال مئات اللآلئ في أحضانه، والبرق كامن في صمت صدره .
- وقد يحيل رمال الصحراء إلى واد من الأزهار، وقد يبعث أمل الزّارع من السبات .
- ورغم أن شأن جلال الأمة قد ظهر،فما زال شأن جمالها مستتر(٦٨).

الصمت والسكون يحويان الحركة بداخلهما :

وفي منظومة له بعنوان **ايک شام** : ذات مساء يظهر ارتياحه لمناظر الطبيعة الصامتة وإن كان يلمس بداخلها الحركة، فهي كلها قافلة تسير، ولكن بصمت مريح يتمناه إقبال، ويحث قلبه على الركون إليه، وإن كانت تغشاه بسببه مسحة من الحزن، يقول :

- ضوء القمر صامت، وأفرع الشجر صامتة .
- طيور الوادي صامتة، والأشجار فوق الجبال صامتة .

- كأن الطبيعة عن الوعي غابت، وفي أحضان الليل استكانت .
- صمت له سحر، بدا منه فكر نيكر (٦٩) في سكون .
- وقافلة النجوم صامتة، فهي قافلة بغير جرس تسير .
- الجبال والصحارى والأنهار صامتة،وكأن الطبيعة في مراقبة وتفكير.
- أيها القلب، عليك أيضاً بالصمت،وخذ الهموم في أحضانك ونم (٧٠) .

وفي هذه القصيدة نلمس بوادر الفلسفة لدى إقبال ووضوحها على ميوله وتصرفاته، وكان ذلك بعد سفره إلى أوروبا واطلاعه على الفلسفة الغربية جنباً إلى جنب مع الفلسفة الإسلامية وتعمقه فيهما، مما جعل نظرته إلى الأمور تتغيّر وتختلف عن نظرته إليها قبل سفره إلى أوروبا، فهو الآن كثير التأمل والتفكير، يميل إلى فهم الأحداث وتوجيهها واستخلاص العبرة منها .

الصمت يحكي التاريخ :

في منظومة له بعنوان صقلية يخاطب الجزيرة الصامتة الرابضة وساحلها الصامت، ويرى في صمتهما كلاماً وحديثاً وحكاية لتاريخ إسلامي مجيد على أرضها،يقول :

- قصّة من تختفي وراء آثارك؟ ففي صمت ساحلك حديث وبيان .
- بثّي إليّ آلامك، فأنا كلّي آلام،أنا غبار قافلة كنت لها محطّ رحال .
- لوّني الصورة القديمة لأراها، وقصّي حكاية السلف لتثيري شجوني .
- سأصحب إلى الهند هداياك،سأبكي هنا، وسأبكي الآخرين هناك (٧١) .

الصمت ثورة في طريقها للميلاد :

ويقول في قصيدة له بعنوان فاطمة بنت عبد الله يرثي الشهيدة العربية فاطمة بنت عبد الله، ويخاطب قبرها مؤكداً على أنّ صمته يحمل بداخله ثورة كبرى، وأنّ أمّة كاملة تترعرع بداخله وتنمو، يقول :

- أيا فاطمة، أنت شرف الأمة الإسلامية، وكل ذرّة في ترابك معصومة .
- يا حور الصحراء، هذا الشرف كان مقسوماً لك، وكان من نصيبك سقي مجاهدي الدين .

- كان جهاد في سبيل الله بغير سيف أو مجنّ، إلى أي مدى كانت الشجاعة وحبّ الشهادة .
- كانت برعماً في روضة غشاها الخريف، يا رب! مثل هذا الشرر كان مختفياً في ترابنا ؟!.
- ما زالت غزلان كثيرة مستترة في صحرائنا، فالسحاب وإن أمطر، لكن البرق فيه كامن .
- أيا فاطمة، مع أن عيوننا تذرف الدموع حزناً عليك، لكن لحناً من السعادة يسري في أوصال أناتنا .
- فرقص ترابك يثير الحماس، وكلّ ذرة منه تملؤها حرقة الحياة .
- هناك ثورة كامنة في قبرك الصامت،وتتربّى في أحضانها أمة جديدة .
- ومع أني لا أعلم عن أهدافها الكبيرة شيئاً، لكني أراها تولد من مرقدك هذا .
- ونجوم جديدة ستظهر في السماء، لم تر موج أنوارها عين الإنسان .
- خرجت الآن من أعماق الزمان، وضياؤها متحرر من قيود الصبح والمساء .
- في بريقها يبدو القديم والجديد معاً، ومن بينها إشراقة نجم تقديرك (٧٢) .

وفي قصيدة له بعنوان **همايون** يؤكد على المعنى السابق، وهو أن الصمت يحمل بداخله حياة كاملة لم يحن وقت ولادتها بعد، ولا بدّ أنها ستولد ، يقول :

- لكن القلب الساذج لا يهتم بالموت، فليس في صمت الليل سوى إرهاصات الغد .
- أيها الغافل! لا تعتبر الموت نهاية الحياة، فليل الحياة هذا هو صبح خلود الحياة (٧٣)

أما منظومة **خضر راه** : خضر الطريق والتي تعدّ من أروع ما كتب إقبال من المنظومات الطوال، فقد عبّر فيها عن رأيه في كثير من أمور الحياة والسياسة وغيرها، وتناول فيها الصمت كذلك. وقد كتب إقبال هذه المنظومة عام ١٩٢٢م، ولذا ينظر إليها على أنها تحوي خلاصة فلسفة إقبال حول عدد من القضايا لم يتغيّر رأيه فيها فيما بعد، إذ كان إقبال في

قمة نضجه الفكري . يقول إقبال في القطعة"البند"الأولى من المنظومة إنه كان يجلس ذات ليلة على شاطئ النهر صامتاً مستغرقاً في تفكيره، ولكن صمته هذا لم يكن دلالة على سكون داخله، وإنما كان يخفي وراءه عالماً كاملاً من الاضطراب والحركة والغليان :

- ذات ليلة كنت على ساحل النهر مستغرقاً في الفكر أخفي في أعماق قلبي عالماً من الاضطراب .
- والليل يبعث على الصمت، والرياح ساكنة، والنهر ينساب برقّة في المسير، يحتار النظر : أهذا نهر أم صورة للماء؟!.
- والأمواج الهائجة تنام في مكان ما من الأعماق كطفل رضيع نائم في مهده .
- وسحر الليل أسر الطيور في الأعشاش، وضوء النجم تلاشى في لغز ضوء القمر .
- فإذا بي أرى الخضر جوّاب العالم، وفي شيخوخته لون الشباب كأنه السّحر .
- يقول لي : أيها الباحث عن أسرار الأزل، إن فتحت عين القلب زال عن تقدير الدنيا الحجاب (٧٤) .

الصمت سمة كل متحرك وجناح خيال الشعراء وهو الحرارة في الأصوات :

وبدأ لفظ الصمت يأخذ معنى واضحاً في فكر إقبال يرتكز على أنه يخفي وراءه جهداً وحركة،وحديثاً وبياناً،ولا علاقة له بالظاهر الذي قد يوحي بالجمود والموت،فهو سمة من سمات كل متحرك،ومظهر من مظاهر التعبير المؤثر،ولحن هادئ من ألحان قيثارة القدرة الإلهية،ومظهر من مظاهر جمالها،ودليل على الفكر العميق،وجناح الخيال عند الشعراء،والحرارة في الأصوات.وقد بدأت هذه المعاني والمدلولات للصمت تتضح وتتحدد في فكر إقبال أثناء دراسته في أوروبا وبعد عودته منها واستقراره في بلاده،ومراقبته لما يجري على أرض الله من أحداث،ومحاولته بثّ الروح من جديد في المسلمين،وتبليغ رسالة الإنسانية إلى البشر كافّة.وهذه قصيدة لإقبال بعنوان موتر:السيارة يتضح فيها مفهوم إقبال للصمت رغم أنه قالها في شأن سيارة أحد أصدقائه، يقول :

- ما أحكم ما قال جكندر (٧٥) بالأمس، كم هي صامتة سيارة ذي الفقار علي خان

- تجدّ في سيرها بغير ضجيج، سريعة كالبرق صامتة كالهواء .
- قلت إن الأمر ليس على السيارة موقوفاً، فكل سريع على طريق الحياة صامت .
- قدم الجرس من الصراخ والضجيج عاجزة، وقافلة العبق كريح الصّبا صامتة .
- ودنّ الخمر لصوت القلقلة قعيد،والكأس– ومن طبعه الصمت– يدور.
- الصمت جناح خيال الشاعر في التحليق، والصمت باعث الحرارة في الأصوات (٧٦) .

الصمت إخفاء للحقيقة :

ثم نجد إقبالاً يجد في الصمت رمزاً لإخفاء الحقيقة، ولا بدّ لهذا الصمت أن يزول، وقد زال فعلاً، وحان وقت انكشاف الأسرار، فيقول في إحدى غزلياته :

- حان وقت زوال الحجب، وستكون رؤية المحبوب عامة، وسينكشف السّرّ الذي حجبته ستائر الصمت .
- أيها الساقي، لقد مضى وقت كان الشاربون يشربون خفية، ستصير الدنيا كلها حانة، وسيشرب الجميع .
- وسيعود الهائمون جنوناً إلى العمار ثانية، وستبقى أقدامهم عارية، لكن غابة الأشواك مختلفة .
- لقد أبلغ صمت الحجاز الأذن المنتظرة أن العهد الذي أخذ على الصحارى سيتوثّق من جديد .
- لقد سمعت من الملائكة أن الأسد (٧٧) الذي خرج من الصحراء وقضي على سلطنة روما سيستيقظ من جديد (٧٨) .

أما المرحلة الثالثة من مراحل تطور الفكر لدى إقبال فهي التي تبدأ – طبقاً لتقسيمنا – من عام ١٩٢٤م وحتى وفاة إقبال عام ١٩٣٨م، أو بتعبير آخر هي المرحلة التي تضم شعره الذي كتبه بعد ديوانه بانگ درا ، والتي تضم دواوينه التالية :

١ – **بال جبريل** : جناح جبريل، وطبع لأول مرة عام ١٩٣٥م .٢ – **ضرب كليم** : ضرب الكليم، وطبع لأول مرة في أواسط عام ١٩٣٦م . ٣ – **ارمغان حجاز** : هدية الحجاز،

وظهر في أواخر عام ١٩٣٨م ، أي بعد وفاة إقبال بعدة أشهر، وإن كانت مسوّدته قد اكتملت في حياته، وما يقرب من ثلثي هذا الديوان بالفارسية، أما الباقي فهو بالأردية .

وتتسم هذه المرحلة بنضوج فكر إقبال واكتماله، وبأنها مرحلة التعبير الكامل عن فلسفته، وخاصة نظرية الذات ونظرية إنكار الذات، وهما محور هذه الفلسفة، وكذلك نظرية العشق . وتميزت هذه المرحلة كذلك بابتداع إقبال لأساليب جديدة لمعالجة قضايا مطروقة، مثل تقديمه لجبريل وإبليس والشيطان، وإعلانه الثورة على الحضارة الغربية ونقدها نقداً صريحاً، ومناداته بالوحدة والأخوة الإسلامية . وفي هذه المرحلة بدأ استعمال إقبال للفظ الصمت وما في معناه يقلّ تدريجياً بما يخدم فلسفته ونظرياته وتصوره لرجل الله، حتى نصل إلى ديوانه الأخير **أرمغان حجاز** فنجده قد ترك استعمال هذا اللفظ تماماً، إذ لم يعد لمدلوله العادي ضرورة في بناء الشخصية التي يريدها إقبال لتكون خليفة الله في الأرض، فبعد أن تبلورت فلسفة إقبال واتضحت معالمها نجده يوظف الصمت الذي ينشده لخدمة الهدف الأسمى من هذه الفلسفة، وهو خلق المسلم الحقّ، أو رجل الله كما يطلق هو عليه، وذلك بخلق الذاتيّة لدى الفرد وتربيتها، فتحوّل هذا الصمت من السكوت والصراع والاضطراب الداخلي إلى حرقة الذات وقوتها وثقتها، ومن هنا وجدنا إقبال يقلّل من استخدام لفظ الصمت كثيراً – كما أشرنا – في هذه المرحلة النهائية . وبإحصاء عدد المرات التي استخدم فيها لفظ **خاموشي** : الصمت ومشتقاته، ولفظ **سكوت** بمعنى الصمت أيضاً، وكذلك لفظ **سكون** في أشعاره الأردية منذ البداية وحتى سفره عام ١٩٠٥م وجدناها حوالي أربعاً وثلاثين مرة، ونفس الألفاظ في فترة سفره التي امتدت من عام ١٩٠٥م إلى عام ١٩٠٨م حوالي خمساً وعشرين مرة، وبعد عودته من السفر عام ١٩٠٨م وحتى عام ١٩٢٤م اثنتين وخمسين مرة، أي أن عدد المرات التي استخدم فيها إقبال الألفاظ السابقة في ديوانه الأول **بانگ درا** كانت إحدى عشر ومائة مرة،وحتى هذه الفترة كان فكر إقبال قد اتضح،وتحددت معالم فلسفته ومدلولات مصطلحاته، ولذا وجدناه يستخدم الألفاظ السابقة في ديوانه الأردي الثاني **بال جبريل** إحدى عشر مرة،وفي ديوانه الثالث **ضرب**

الكليم عشر مرات،بينما ديوانه الرابع ارمغان حجاز – القسم الأردي – يخلو تماماً من استعمال لفظ الصمت والسكوت والسكون وما في معناها .

الصمت قوة وجلد :

وأصبح الصمت لديه يعبر عن القوة والجلد، ولأنه عبد مؤمن فهو صامد صامت حتى وهو ملقى وسط نيران النمرود :

- أنا صامد حتى بداخل لهيب نيران النمرود، فأنا عبد مؤمن، ولست حبّة حرمل "بخور" (٧٩) .

الصمت وضوح شديد ، وكشف للأسرار :

بل إن صمته وكتمانه يكشف أسراره ويعبّر عن أناته :

- لقد كشف إخفائي النّقاب عن سرّ محبتي، فما ظننته كتماناً كان في ذاته أنيناً (٨٠) .

وصار الصمت علامة على شدة الوضوح وكمال البيان :

- العالم بالمعاني صامت، لا يقول أبداً "لن تراني" (٨١) .

ولذا فهو لم يعد يستطيع صبراً على الصمت وهو في الحضرة الإلهية حتى تعدّى بحديثه حدود الأدب – على حدّ تعبيره – ويتمنى لو يغلق فمه أحد :

- لم يستطع إقبال صمتاً حتى في الحضرة الإلهية، ليت أحداً يغلق فم سيئ الأدب هذا (٨٢) .

ولا يخفى أنه لا يختص بقوله إقبال نفسه، وإنما يطلقها على المسلم الحق، أو رجل الله كما يطلق هو عليه .

لا صمت في الكائنات :

ثم لم يعد إقبال يرى سكوناً أو صمتاً في مكان ما من الكائنات :

- كل شئ في سفر، كل شئ يسير في طريقه، سواء في ذلك القمر أم النجوم أم الطيور أم الأسماك (٨٣) .
- كل شئ منهمك في الظهور، كل ذرة مستميتة في التعاظم (٨٤) .

الصمت من خداع البصر :

وأصبح يرى أن السكون والثبات ما هما إلاّ خدعة من خداع البصر، وأن كل الكائنات في حركة دائبة، وأن السفر هو أصل الحياة، وما عدا ذلك فهو وهم وسراب :

- ما السكون والثبات إلاّ من خداع البصر، وإلاّ فكل ذرة في الكائنات في اضطراب .
- لا تتوقف أبداً قافلة الوجود، فالتغيّر الدائم شأن الوجود .
- السفر هو كل متاع الحياة، السفر حقيقة،والتوقّف وهم ومجاز(٨٥) .

وأن كل صامت بداخله كلام وأسرار لا يفهمها ويدرك معانيها سوى من ينعم الله عليه بقلب سليم، ويمكّنه من الوصول إلى فتح مغاليقها :

- لئن أنعم الله عليك بقلب عارف للفطرة لفهمت الكلام من صمت الورود والشقائق (٨٦) .
- لا تنكشف أسرار هذا البحر الصامت إلاّ أن تشقّه بضربة من ضربات الكليم (٨٧)

فإن كان العالم كله في صمت واستغراق فذلك ليس لأنه جامد فعلاً، ولكن لأنه نال شرف المثول أمام الحضرة الإلهية :

- العالم في صمت واستغراق وكأن كل شئ قد نال شرف المثول في الحضرة الإلهية (٨٨) .

الصمت في العالم العلوي فقط :

بل إن الصمت لا يوجد إلاّ في عالم الملائكة، فيقول على لسان إبليس :

- لا أستطيع الحياة هنا، لا أستطيع، فكم هو صامت هذا العالم الخالي من القصور والشوارع (٨٩) .

فإذا وصلنا إلى ديوانه **ضرب الكليم** وجدنا تأكيداً على المعاني السابقة للصمت وما في معناه وإصراراً عليها، فعالم الملائكة واللاهوت هو الذي يتّصف بالصمت وليس عالم الإنسان،

وبذا فإن الصمت في عالمنا هذا من العيوب والنقائص، وأن المسلم الحقّ يعيش دائماً في تصادم مع الباطل ومواجهة المصائب :

- رغم أن المشرق لم يحرم متعة المشاهدة،لكنه صامت كعالم اللاهوت (٩٠) .
- إن بحرك ساكن، أسكون هذا أم سحر؟! فلا تماسيح، ولا طوفان، ولا آثار على الشاطئ (٩١) .
- ملّ الفقر من ركون الراهب للراحة، فسفينة الدّرويش دائماً في الطوفان (٩٢) .

الصمت عشق :

ويطغى العشق على كل شئ في الكائنات،فيصبح الصمت عشقاً،والسكون عشقاً، والحياة عشقاً،والممات عشقاً، بل إن كل ما يحدث في الكائنات هو بفضل العشق :

- من حرارة العشق معركة الكائنات .....
- العلم مقام الصفات، والعشق رؤية الذات .....
- العشق هو السكون والثبات، العشق هو الحياة والممات .....
- العلم يخلق السؤال، وفي العشق يكمن الجواب ..... (٩٣) .

وبعد ،

فيتضح من الدراسة السابقة أن فلسفة إقبال ليست نتاجاً فجائياً بلا مقدمات،وإنما المتتبع لأشعاره يرى خطّاً واضحاً يصل ما بين فكر إقبال وهو لا يزال شاباً في العشرينات من عمره، وفكره حين صار في قمة نضوجه،وأن البذور الأولى لكل نظرية من نظرياته والتي عبّر عنها في أشعاره في فترة النضوج هذه تبدو واضحة في أشعاره الأولى قبل سفره إلى أوروبا،وأن محور فلسفة إقبال هو الحركة، ذلك لأن الحركة هي الأساس في خلق الشخصية الحقّة،لكن هذه الحركة لا بدّ لها من ترتيب معيّن تسير وفقاً له،وإلاّ صار ضررها أكبر من نفعها، ومن هنا كانت نظرية الذاتية، والتي تعني أول ما تعني شعور المرء بذاته واكتشافه لقدراتها، والتعرّف على ما أودعه الله فيها من إمكانيّات تجعل من السهل عليها تسخير الكائنات،ثم اندماج هذه الذاتية الفردية في ذاتية المجتمع فيصبح الجزء خادماً للكل،والكل محافظاً على الجزء،ولكلّ استقلاليته،وهو ما يعرف بنظرية اللاذاتية.وأمام خطورة تأثير هذه الذات كان لا بدّ من تربيتها

في مراحل يرفع بعضها بعضاً، ويسهم كل منها في الوصول بها إلى المستوى الذي يجعل منها خليفة لله في الأرض .

ومع ذلك فقد كانت للصمت في فكر إقبال وأشعاره مراحل متتابعة لعبت دوراً أساسياً في تشكيل فلسفته ونظرياته،وأبانت عن تصوره لجوانب مختلفة من الحياة،كما قدمت لنا صورة عن مشاعر إقبال وأحاسيسه.وقد أوضحت الدراسة أن الصمت عند إقبال مرّ بثلاث مراحل مختلفة تبعاً لتطور فكر إقبال ذاته، فالمرحلة الأولى هي التي أفاد فيها هذا اللفظ في التعبير عن حبّ الوطن والهيام به، إضافة إلى ما قد يعتري الشعراء عامة من حزن وصمت وفكر.أما المرحلة الثانية فهي التي عبّر فيها الصمت عن الاضطراب والثورة والصراع،وما لبث أن تطور ليصبح لحناً هادئاً في قيثارة الفطرة،وآهة حارّة معبّرة عن الآلام،ثم صار صفة كل متحرك مجدّ في سيره.أما المرحلة الثالثة فهي التي صار الصمت فيها جزءاً لا يتجزّأ من ذاتية المسلم الحق،أو رجل الله، فهو أساس في تربية هذه الذات،وليس مرادفاً للإمساك عن الكلام والحديث،بل هو في ذاته حديث وقوّة ووضوح .

الهوامش

١ – هذه المصلحة تتركز في خوف المحتلين الإنجليز من المسلمين في البلاد، إذ هم الذين قادوا ثورة التحرير الهندية عام ١٨٧٥م تحت قيادة آخر السلاطين المغول بهادر شاه ظفر : متوفى ١٨٦٢م مع مشاركة الطوائف الدينية الأخرى في الثورة، ورغم أن الإنجليز قد سحقوا هذه الثورة وقضوا عليها ونفوا السلطان بهادر شاه ظفر إلى رنجون في جزيرة سيلان حتى توفي هناك، إلا أنهم كانوا يخشون من أن يقوم المسلمون بإعادة المحاولة مرة أخرى، خاصة وأن الدين الإسلامي يدعو إلى الجهاد لإخراج المحتلين من الأرض، ولذا عمل الإنجليز على التكيل بالمسلمين وإبعادهم عن المشاركة في الحياة العملية بصورة مؤثرة .

٢ – ظلّت اللغة الفارسية هي اللغة الرسمية لبلاد شبه القارة الهندو باكستانية منذ عهد الدولة الغزنوية التي تأسست في شبه القارة على يد القائد محمود الغزنوي في أواخر القرن الرابع الهجري وحتى تم إلغاؤها من التعامل الرسمي في البلاد عام ١٩٣٥م، ومع هذا فإنه لا يزال للفارسية في بلاد شبه القارة الهندو باكستانية سوق تكاد تكون رائجة، ولا يزال بعض شعراء الأردية حتى يومنا هذا يكتبون بالفارسية أحياناً، ويعقدون الأمسيات الشعرية لإلقاء أشعارهم الفارسية فيها، وقد كان معظم شعراء الأردية حتى وقت قريب يكتبون باللغتين الأردية والفارسية، ومن أعظم من كتب شعراً بالفارسية الشاعر مرزا أسد الله خان غالب : متوفى عام ١٨٦٩م والشاعر العظيم محمد إقبال : متوفى ١٩٣٨م والذي كتب ثلثي شعره بالفارسية . أنظر كتاب : اردو

هندي هندوستاني – انتخاب من مجلة هندوستاني إله آباد من عام ١٩٣١م – ١٩٤٨م – ص ٤١ وما بعدها – بتنه – الهند ١٩٩٣م .

٣ – كانت قضية اللغة الأردية من أوائل القضايا التي أثارها الإنجليز لبثّ روح الخلاف بين المسلمين والهندوس على وجه الخصوص وبعث الأحقاد الدفينة بينهما، إذ أعلن الحاكم الإنجليزي للأقاليم المتحدة في ذلك الوقت – آثر برديش حالياً – (حيث اللغة الأردية هي اللغة الأم) أن سبب تخلف التعليم في البلاد، وبصفة خاصة في الأقاليم التي يتحدث أهلها الأردية هو استخدام اللغة الأردية المكتوبة بالحروف العربية كلغة للتعليم في المدارس، وكان ذلك في عهد السيد تيلر عندما كان رئيساً لقسم اللغة الهندوستانية بكلية فورت وليم من عام ١٨٠٨م حتى عام ١٨٢٣م ، والتقط المتعصبون من الهندوس أطراف الخيط وأخذوا في جذبه، حتى كانت نتيجته صدامات دموية بين المسلمين والهندوس فيما بعد، وبعد أن كانت القضية تنحصر بين الأردية بخطها العربي الفارسي، والأردية حين تكتب بالخط الديوناكري، أصبحت القضية بين الأردية باعتبارها لغة المسلمين فقط – وهذا خطأ علمي – والهندية – الأردية بالخط الديوناكري – لغة الهندوس .أنظر : د / سميع الله – فورت وليم كالج – ص ٦٧ – لكهنو – الهند ١٩٨٩م .

٤ – شاه وليّ الله الدهلوي : علم من أعلام الإسلام في شبه القارة الهندو باكستانية، ولد في ١٤ شوال ١١١٤هـ بدهلي، وتوفي في المحرم من عام ١١٧٦هـ، وكان يجيد العربية والفارسية، ومن مؤلفاته : ١ – الفوز الكبير في أصول التفسير ٢ – فتح الرحمن في ترجمة القرآن ٣ – المصفّى في شرح الموطّأ ٤ – حجة الله البالغة .

٥ – سر سيد أحمد خان : رائد النهضة العلمية لمسلمي شبه القارة الهندو باكستانية أنشأ العديد من المدارس والكليات التي تهتم بتعليم المسلمين، والي تحول بعضها فيما بعد إلى جامعات، كما أنشأ العديد من الجمعيات العلمية التي تهتم بالتأليف والترجمة، وأصدر مجلة تهذيب الأخلاق عام ١٨٧٠م والتي كان لها فضل كبير في النهوض بمسلمي شبه القارة، كما أنها أدت دوراً ملحوظاً في خدمة اللغة الأردية والتأكيد على أنها لغة علمية وأدبية وتستطيع التعبير عن مختلف فنون المعرفة . ولد سر سيد أحمد خان عام ١٨١٧م، وتوفي عام ١٨٩٦م، وله مؤلفات كثيرة من بينها : ١ – اسباب بغاوت هند ٢ – آثار الصناديد .

٦ – مؤسس باكستان وأول حاكم عام لها، ولد عام ١٨٧٦م، وعمل بالمحاماة، ثم قاد جهاد المسلمين في سبيل الحصول على وطن مستقل (باكستان) إلى أن تحقق هذا الهدف على أرض الواقع في ١٤ أغسطس عام ١٩٤٧م، وتوفي جناح في ١١ من سبتمبر عام ١٩٤٨م .

٧ – نقصد هنا ما كتبه إقبال بالأردية .

٨ – كانت أول قصيدة – همالہ – كتبها إقبال باللغة الأردية ، وتتصدر ديوانه الأردي الأول بانگ درا تتسم بالوطنية، ونشرت هذه القصيدة أول أمرها بالعدد الأول من جريدة مخزن التي كان يصدرها الشيخ عبد القادر متوفى عام ١٩٥٤م وذلك في أبريل عام ١٩٠١م .

٩ – كليات إقبال – بانگ درا – همالہ – ص ٢١ – لاهور – باكستان – ط ٧ – ١٩٨٦م .

١٠ – كليات إقبال – بانگ درا – تصوير درد – ص ٧٠–٧١، وهي منظومة طويلة كتبها إقبال قبل سفره إلى أوروبا، وتضم تسعة وستين بيتاً، وألقاها في الجلسة السنوية التاسعة عشر لجمعية حماية الإسلام، ونشرتها جريدة مخزن في عدد مارس عام ١٩٠٤م .

أنظر : غلام رسول مهر – مطالب بانگ درا – ص ٨٩ – لاهور – باكستان ١٩٨٧م .

١١ – المقصود هنا حضارة مصر واليونان وروما القديمة .

١٢ – كليات إقبال – بانگ درا – ص ٨٣ . نشرت هذه المنظومة في جريدة مخزن عدد أكتوبر عام ١٩٠٤م، وكان عنوانها الأصلي هو همارا ديس : وطننا، ثم تمّ تغييره عند طبع ديوان بانگ درا . أنظر : غلام رسول مهر – مطالب بانگ درا – ص ٨٩ .

١٣ – الإشارة إلى الشيخ خواجه معين الدين جشتي أحد أقطاب الصوفية المعروفين، وضريحه موجود في اجمير : راجبوتانه بالهند .

١٤ – الإشارة إلى كورو نانک مؤسس طائفة السيخ في الهند، وهم يقولون باحترام الأديان والأنبياء جميعاً، ويؤمنون بقوة خفية كبرى، وهذه الطائفة أقلية في الهند، ورغم ما تقول به كتبهم إلاّ أنهم يكنّون عداءاً شديداً للمسلمين .

١٥ – إشارة إلى الدولة المغولية في الهند والتي أسسها ظهير الدين بابر : ١٤٨١م / ١٥٣٠م ، ويرجع نسبه من ناحية أبيه إلى الترك، ومن ناحية أمه إلى المغول، وقد حكمت هذه الدولة من عام ١٥٢٩م حتى عام ١٨٥٧م .

١٦ – إشارة إلى الفتح العربي لشبه القارة الهندو باكستانية والذي تمّ على يد محمد بن القاسم عام ٧١٢م أواخر القرن الأول الهجري، وكان ذلك في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك .

١٧ – إشارة إلى تفوق الهنود القدامى في الفلسفة والحكمة على اليونانيين حيث تذكر كتب التاريخ أن فلاسفة الهند سخروا من أفلاطون حين ناظروه وتفوقوا عليه .

أنظر : د / أحمد محمود الساداتي – تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم – الجزء الأول – ص ١٥ – القاهرة – مصر ١٩٥٤م .

١٨ – إشارة إلى الفتح الغزنوي لشبه القارة الهندية في أواخر القرن الرابع الهجري على يد محمود الغزنوي بن سبكتكين التركي .

١٩ – إشارة إلى البارسيين عبدة النار الذين هاجروا إلى الهند من بلاد فارس، وصاروا في مهجرهم من كبار الأثرياء والتجار، ولا يزالون إلى اليوم يعيشون بالهند ومن أصحاب الثروات الضخمة .

٢٠ – إشارة إلى مقولة رائجة في بلاد شبه القارة الهندية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ورد عنه أنه قال فيما معناه : أشم النسيم القادم من الهند، ولم يثبت مثل هذا الكلام عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .
أنظر : غلام رسول مهر – مطالب بانگ درا – ص ٩٤ .

٢١ – اشتهر في الهند أن سفينة نوح عليه السلام قد رست على قمة من قمم جبال الهيمالايا والتي تسمى ناؤ بندهن : مرسى السفينة، لكن التاريخ أثبت أن سفينة نوح عليه السلام قد رست على جبل الجودي والذي يعدّ قمة من قمم جبال القفقاز .
أنظر : غلام رسول مهر – مطالب بانگ درا – ص ٩٤ .

٢٢ – إشارة إلى الارتفاع الشديد لجبال الهيمالايا، وفيها أعلى قمة جبلية في العالم وهي قمة ايفرست والتي تكاد تبدو للرائي كأنها تلامس السماء، فصارت كالدّرج الموصل اليها .

٢٣ – كليات إقبال – بانگ درا – ص ٨٧ . وقد كتب إقبال هذه القصيدة في فبراير عام ١٩٠٥م .

٢٤ – د / غلام حسين ذو الفقار – اردو شاعري كا سياسي اور سماجي بس منظر – ص ٤٥ – لاهور – باكستان ١٩٦٦م .

٢٥ – كليات إقبال – بانگ درا – ص ١٦٠ .

٢٦ – نجيب الكيلاني – إقبال الشاعر الثائر – صفحة ٣٥ – القاهرة – مصر ١٩٥٩م .

٢٧ – من الجدير بالذكر أن إقبال قد استخدم مصطلحات عديدة تعبر عن هذه الشخصية المنشودة ومن بينها : مرد خدا – مرد مؤمن – مرد كامل – بندهء مؤمن – مردان حر – مردان غازى – مرد راه – مرد ميدان – مرد فقير – مرد درويش – مرد آفاقى – مرد قلندر – مرد حق – صاحب ادراك – مرد سباهى – مرد حر – مرد مجاهد – بندهء حق – مرد مسلمان – بندهء حر – بندهء آزاد – صاحب يقين .

٢٨ – كليات إقبال – بال جبريل – ص ٩٤ .

٢٩ – رافق إقبال في هذه الزيارة السيد سليمان الندوي والسير راس مسعود عليهما رحمة الله، وكان الهدف من هذه الزيارة هو الاستفادة بخبرات هؤلاء العظماء الثلاثة في وضع مناهج تستفيد بها الإدارات التعليمية في أفغانستان. وقد سلك هؤلاء في سفرهم طريق بيشاور – درّه خيبر – جلال آباد ثم كابول، وفي العودة سلكوا طريق غزنة – قلات – قندهار، وقد كتب إقبال تخليداً لذكرى هذه الرحلة مثنوي مسافر بالفارسية والذي طبع أولاً مستقلاً، ثم طبع فيما بعد مع مثنوي بس جه بايد كرد اى اقوام شرق بالفارسية أيضاً .
أنظر : غلام رسول مهر – مطالب بال جبريل – ص ٤٠ .

٣٠ – كليات إقبال – بال جبريل – ص ٢٦ .

٣١ – كليات إقبال – بانگ درا – ص ١٣٠ .

٣٢ – المصدر السابق – جواب شكوه – ص ١٩٠ .

٣٣ – البقرة : ٣٠ .

٣٤ – الأحزاب : ٧٢ .

٣٥ – كليات إقبال – بال جبريل – ص ١٠ .

٣٦ – المرجع السابق – ص ١٢

٣٧ – كليات إقبال – بانگ درا – جواب شكوه – ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ . وقد قرأ إقبال هذه المنظومة في جلسة عامة في مدينة لاهور بعد صلاة المغرب، وكان ذلك عام ١٩١٣م .

٣٨ – المرجع السابق – شمع – ص ١٩٢ . ومنظومة شمع منظومة طويلة من أحد عشر مقطوعة قرأها إقبال لأول مرة في الجلسة السنوية لجمعية حماية الإسلام المجمن حمايت اسلام عام ١٩١٢م . أنظر : غلام رسول مهر – مطالب بانگ درا – ص ٢٣٤ .

٣٩ – كليات إقبال – بانگ درا – ص ١٨٠ . وقد ألقى إقبال هذه الأشعار في جلسة جمعية حمايت الإسلام عام ١٩١٤م في ميدان الكلية الإسلامية بلاهور .

٤٠ – هناك تصور عام عن الخضر انعكس في الشعر الأردي وهو أنه يعيش في الصحارى والجبال والوديان لإرشاد التائهين وهداية الضالين، وربما كان هذا التصور موجوداً في الفكر المصري أيضاً، وقد يكون مستوحى من القصة القرآنية التي تحكي لقاء موسى عليه السلام بالعبد الصالح – الخضر – والتي وردت في سورة الكهف من آية رقم ٦٥ وحتى آية رقم ٨٢ .

٤١ – كليات إقبال – بانگ درا ص ١٨٠ . وقد ألقى إقبال هذه المنظومة في الجلسة السابعة والثلاثين لجمعية حماية الإسلام في أبريل عام ١٩٢٢م بلاهور، وقد حضر هذه الجلسة ما لا يقل عن عشرين ألف شخص، وفيها بكى إقبال وأبكى الحضور معه .

أنظر : غلام رسول مهر – مطالب بانگ درا – ص ٣٠٦ .

٤٢ – الملك : ١٥ .

٤٣ – كليات إقبال – بال جبريل – شاهين – ص ١٦٥ . وقد صاغ الأستاذ زهير ظاظا هذه المنظومة شعراً عربياً جميلاً نرى من المناسب إيراده هنا :

* جزت في الأرض بلدة بعد أخرى :: ثم ألقيت كل شئ ورائي
* تلك العالم الذي زعموا :: ليس يقتات غير حبّ وماء
* أنا نجل الصحراء والزهد حبي :: وهما في سجيّتي ودمائي
* أجهل الزهر والنسيم وما في :: لوعة العندليب عند المساء

• ورجال البستان تغري ولكن :: ليس تغري منشأ في العراء
• أين مجدي إذا شقيت لجوع :: وأنلّت حمامة كبريائي
• بافتراسي أصون عزّة وجهي :: وأروي حماستي و'بائي
• كل طير له من الأرض عشّ :: وأنا ههنا حليف مضائي
• كيف يبني قلندر الطير عشاً :: وهو الفرد في رحاب السماء

أنظر : زهير ظاظا – ترجمة ديوان جناح جبريل – ص ٣٥٧، ٣٥٨ – دمشق – سوريا ١٩٩٨م.

٤٤ – كليات إقبال – بال جبريل – ص ٦١ . هذه المنظومة من ثلاثة أجزاء : في الجزء الأول، أي منظومة لينين في حضرة الله يتصور الشاعر أن لينين (١٨٧٠م/١٩٢٤م) بعد وفاته مثل بين يدي الله تعالى فسأله عن سبب الثورة التي قام بها، فذكر أن العالم أصبح في حالة يرثى لها، وهو في انتظار من ينقذه من براثن الرأسمالية، وأن العمال بصفة خاصة في حالة بائسة، وحياقم يملؤها الظلم وتكتنفها المرارة، وأن المال أصبح يعبد من دون الله . ويضم هذا الجزء اثنين وعشرين بيتاً، أما الجزء الثاني وهو بعنوان نشيد الملائكة ففيه تؤيّد الملائكة ما قاله لينين، ويضم هذا الجزء خمسة أبيات، بينما الجزء الثالث وهو بعنوان أمر الله للملائكة فيضم ثمانية أبيات .

٤٥ – كليات إقبال – بال جبريل – ص ١٠٩ ، ١١٠ .

٤٦ – كليات إقبال – بال جبريل – ص ٨ . وهذه ترجمة قمت بها لهذه الأشعار حاولت فيها أن أكون أقرب إلى الشعر وألتزم نوعاً ما من القافية، ولا أزيد في عدد الأبيات كثيراً، ولذا فمن الممكن أن تكون ترجمة بعض الأبيات أقرب إلى المعنى من اللفظ :

• حـرّ أنـا لا أروم ثنـاء ::: فاسمع صرختي وافعل ما تشاء
• قبضـة تراب ورياح عوات ::: وأفلاك ليس لوسعتها انتهاء
• أ هذا الخلق منك متعة ترضيك ::: أم أنه كرم حقّاً وسخاء
• أيّ ربيع هذا وأيّ نسيـم ذاك ::: ما يكسر الوردة في الروضة الغنّاء
• مذنب أنا وغريب الدار لكن ::: تعجز عن فعلي ملائكة السماء
• نزلت بدنياك وهي خرابة ::: وملأت ربوعها رياضاً وبناء
• من أجل هذا تمتنّ لجهودي ::: تلك الصحاري وعالمك الخواء
• ألا إن المغامر لا تروقه حديقة ::: قد خلت جنباتها من الصياد
• ومقام الشوق لا تطاله ملائك ::: وإنما ذوو الهمم مرهفو الفؤاد

٤٧ – بروفيسر محمـد جليل نقوي – مطالعه إقبال – ص ٤ – لاهور – باكستان ١٩٨٩م .

٤٨ – كليات إقبال – مقدمة الشيخ عبد القادر – ص ١٤ .

٤٩ – كليات إقبال – بانگ درا – ص ٣٢ .

٥٠ – المرجع السابق – ص ٢٢ .

٥١ – كليات إقبال – بانگ درا – ص ٦٨ . نشرت هذه المنظومة في جريدة مخزن عدد ديسمبر ١٩٠٤م ، وكانت تضم اثنين وعشرين بيتاً ، وعند مراجعتها حذف إقبال منها بيتين .

أنظر : غلام رسول مهر – مطالب بانگ درا – ص ٩٢ .

٥٢ – المرجع السابق – ص ٦٣ .

٥٣ – المرجع السابق – جاند – ص ٧٩ .

٥٤ – كليات إقبال – بانگ درا – ايكـ آرزو – ص ٤٦ . وقد نشرت هذه المنظومة لأول مرة في عدد ديسمبر ١٩٠٢م من مجلة مخزن ، وكانت تضم ثلاثين بيتاً من الشعر ، ثم راجعها إقبال وحذف منها عشرة أبيات كاملة .

أنظر : غلام رسول مهر – مطالب بانگ در – ص ٦٨ .

٥٥ – كليات إقبال – بانگ درا – تصوير درد – ص ٦٨ .

٥٦ – كليات إقبال – بانگ درا – تصوير درد – ص ٧١ . ومنظومة تصوير درد : صورة الألم واحدة من خمس منظومات طويلة كتبها إقبال قبل سفره إلى أوروبا عام ١٩٠٥م ، وقرأها جميعاً في الاجتماعات السنوية لجمعية حماية الإسلام ، وهذه المنظومات الخمس هي : نالهء يتيم : أنّة اليتيم – يتيم كا خطاب هلال عيد سے : حديث اليتيم إلى هلال العيد – خطاب إلى مسلمي البنجاب – فرياد أمت : استغاثة الأمة – تصوير درد : صورة الألم . ولم يشمل بانگ درا المنظومات الأربع الأولى . هذا وقد نشرت مجلة مخزن منظومة تصوير درد في عدد مارس ١٩٠٤م في شكل ملحق للعدد ، وكتب عليه أن هذه المنظومة الرائعة قرأت في الاجتماع السنوي التاسع عشر لجمعية حماية الإسلام .

أنظر : غلام رسول مهر – مطالب بانگ درا – ص ٦٩ .

٥٧ – كليات إقبال – بانگ درا – ص ٨٤ . وقد نشرت هذه المنظومة في جريدة مخزن عدد ديسمبر ١٩٠٤م

٥٨ – كليات إقبال – بانگ درا – ص ٩٣ . وقد نشرت هذه المنظومة في جريدة مخزن عدد سبتمبر ١٩٠٥م .

٥٩ – الإشارة إلى ضريح السلطان المغولي جهانكير الذي حكم الهند من عام ١٦٠٥م حتى عام ١٦٢٧م .

٦٠ – كليات إقبال – بانگ درا – ص ٩٥ . وقد نشرت هذه المنظومة في جريدة مخزن عدد نوفمبر ١٩٠٥م ، وكانت تضم أربعة عشر بيتاً حذف منها إقبال بيتين عند المراجعة .

٦١ – كليات إقبال – بانگ درا – ص ١٠١ .

٦٢ – كليات إقبال–بانگ– درا–ص٨٨.ونشرت هذه القصيدة في جريدة مخزن عدد مارس ١٩٠٥م .

٦٣ – كليات إقبال – بانگ– درا – ص ٣٩ ، ٤٠.وقد نشرت هذه المنظومة في جريدة مخزن عدد فبراير ١٩٠٢م .

٦٤ – المرجع السابق – ص ٦٣ . والقصيدة مأخوذة من قصيدة للشاعر الإنجليزي ايمرسن، ونشرت في جريدة مخزن عدد مارس ١٩٠٤م .

٦٥ – المرجع السابق – ص ٧٩ . وقد نشرت هـذه القصيدة في جريدة مخزن عدد يوليو ١٩٠٤م .

٦٦ – قلعة كولكنده حيث كانت هذه المنطقة عاصمة للدولة القطب شاهية .

٦٧ – آخر سلاطين المغول العظام في شبه القارة الهندو باكستانية، وتوفي عام ١٧٠٧م .

٦٨ – كليات إقبال – بانگ– درا – ص ١٤٩ ، ١٥٣ . وقد نشرت هذه المنظومة في جريدة مخزن عدد يونيه ١٩١٠م ، وأنشأها إقبال أمام قلعة كولكنده بجوار مقابر سلاطين الدولة القطب شاهية، وتقع هذه المقابر على بعد خمسة أميال من مدينة حيدر آباد الدكن، وقد انتهى أمر الدولة القطب شاهية بأن ضمها عالمكير إلى الدولة المغولية عام ١٦٨٧م .

٦٩ – نهر نيكر يقع في ألمانيا، وعلى شاطئه الأيسر تقع مدينة هايدل برج الألمانية الشهيرة .

٧٠ – كليات إقبال–بانگ– درا–ص ١٢٨. وقد كتب إقبال هذه القصيدة عندما سافر إلى جامعة ميونخ بألمانيا،ومن هناك سافر إلى جامعة هايدل برج للاستفادة من مكتبتها في أغسطس عام ١٩٠٧م .

٧١ – كليات إقبال – بانگ– درا – ص ١٣٤ . وقد نشرت هذه المنظومة في جريدة مخزن عدد أغسطس ١٩٠٨م، وكان عنوانها جزيرة سيسلي، وتشتهر باسم مرثية سيسلي، هذا وقد ألقى إقبال هذه المنظومة لأول مرة بعد عودته من أوروبا إلى الهند وذلك في جلسة مع أصدقائه عند ضريح الشيخ نظام الدين أوليا بدهلي في ٢٦ يوليو ١٩٠٨م، وشارك في هذه الجلسة كل من خواجه حسن نظامي والشيخ عبد القادر والشيخ محمد إكرام والشاعر مير غلام بهيک نيرنگ ومولانا راشد الخيري .

أنظر : غلام رسول مهر – مطالب بانگ– درا – ص ١٥٩ .

٧٢ – كليات إقبال – بانگ– درا – ص ٢١٤ . والقصيدة كتبها إقبال رثاء للمحاهدة العربية فاطمة بنت عبد الله التي استشهدت في حرب طرابلس عام ١٩١٢م والتي نشبت بين العرب والأتراك من جانب والإيطاليين من جانب آخر، وكانت هذه البطلة على رغم سنها الصغير والذي لم يتجاوز إحدى عشرة سنة تسقي الجرحى من المجاهدين أثناء الحرب حتى نالتها بنادق الإيطاليين ففازت بالشهادة .

٧٣ – كليات إقبال – بانگ– درا – ص ٢٥٤ . وهذه القصيدة كتبها إقبال رثاء لصديقه ميان شاه دين المتخلّص بهمايون، وكان صاحب علم وفضل .

٧٤ – كليات إقبال – بانگ– درا – خضر راه – ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

٧٥ – هو سر جوكندر سنكهـ أحد أصدقاء إقبال بلاهور،وكان يستقل هذه السيارة مع إقبال برفقة السيد نواب سردار ذو الفقار علي خان أحد الكبراء في شبه القارة في زمانه،وقد عمل وزيراً لفترة لسلطنة بتياله، ثم رحل إلى لاهور واستقر بها، ونشأت بينه وبين إقبال صداقة متينة ، وقد كتب ذو الفقار هذا كتاباً عن أشعار إقبال يدعو فيه إلى تعريف الغرب بها، وكان إقبال يجتمع مع أصدقاء آخرين له عند السيد ذو الفقار، ومن بين هؤلاء الأصدقاء بالإضافة إلى سر جوكندر سابق الذكر كان سردار أمراؤ سنكهـ وسردار سندر سنكهـ ومرزا جلال الدين وسردار سر جواهر سنكهـ وسردار دلجيت سنكهـ .

٧٦ – كليات إقبال – بانگـ درا – موتر – ص ١٧٨ . وقد كتب إقبال هذه القصيدة بعد عام ١٩١٠م وذلك حين ربطته صداقة قوية مع النواب سردار ذو الفقار علي خان . وقصة نظمها أن النواب ذو الفقار اشترى سيارة فخمة، وذات مرة استقل معه هذه السيارة كل من إقبال وسر جوكندر سنكهـ ومرزا جلال الدين وخرجوا جميعاً للتنزّه عند حدائق شالامار بلاهور والتي بناها السلطان المغولي شاهجهان في القرن السابع عشر الميلادي، وكانت السيارة مسرعة، ولكن صوتها كان غاية في الهدوء قياساً بسيارات تلك الفترة من أوائل القرن العشرين، فقال جوكندر سنكهـ وقد ملأه العجب من هدوء صوت السيارة وانخفاضه : إن سيارة النواب مغرقة في الصمت . وتفاعل إقبال مع الجملة، ثم أنشأ بعدها القصيدة .

أنظر : غلام رسول مهر – مطالب بانگـ درا – ص ٢٢٧ .

٧٧ – يقصد بالأسد المسلمين العرب الذين خرجوا من الصحراء وقضوا على سلطنة روما .

٧٨ – كليات إقبال – بانگـ درا – ص ١٣٠ . وقد كتب إقبال هذه الغزلية الطويلة في مارس عام ١٩٠٧م بينما كان في أوروبا، وتعدّ هذه الغزلية بالذات أكبر انعكاس للتغيير الذي طرأ على فكر إقبال وتمثّل قمّته، وبدا من أشعارها أن إقبال لم يعد شاعراً فقط، وإنما صار شاعراً ذا رسالة . أنظر : غلام رسول مهر – مطالب بانگـ درا – ص ١٧١ .

٧٩ – كليات إقبال – بال جبريل – ص ٣١٣ .

٨٠ – المرجع السابق – ص ٣١٠ .

٨١ – المرجع السابق – ضرب كليم – خاقاني – ص ٥٨٢ .

٨٢ – المرجع السابق – ص ٣١٣ .

٨٣ – المرجع السابق – ص ٣٤٥ .

٨٤ – المرجع السابق – ص ٣٤٥ .

٨٥ – كليات إقبال – بال جبريل – ساقي نامه – ص ٤١٨ .

٨٦ – المرجع السابق – جاويد كـ نام – ص ٤٣٩ .

٨٧ – المرجع السابق – ماهر نفسيات ســ – ص ٤٥٩ .